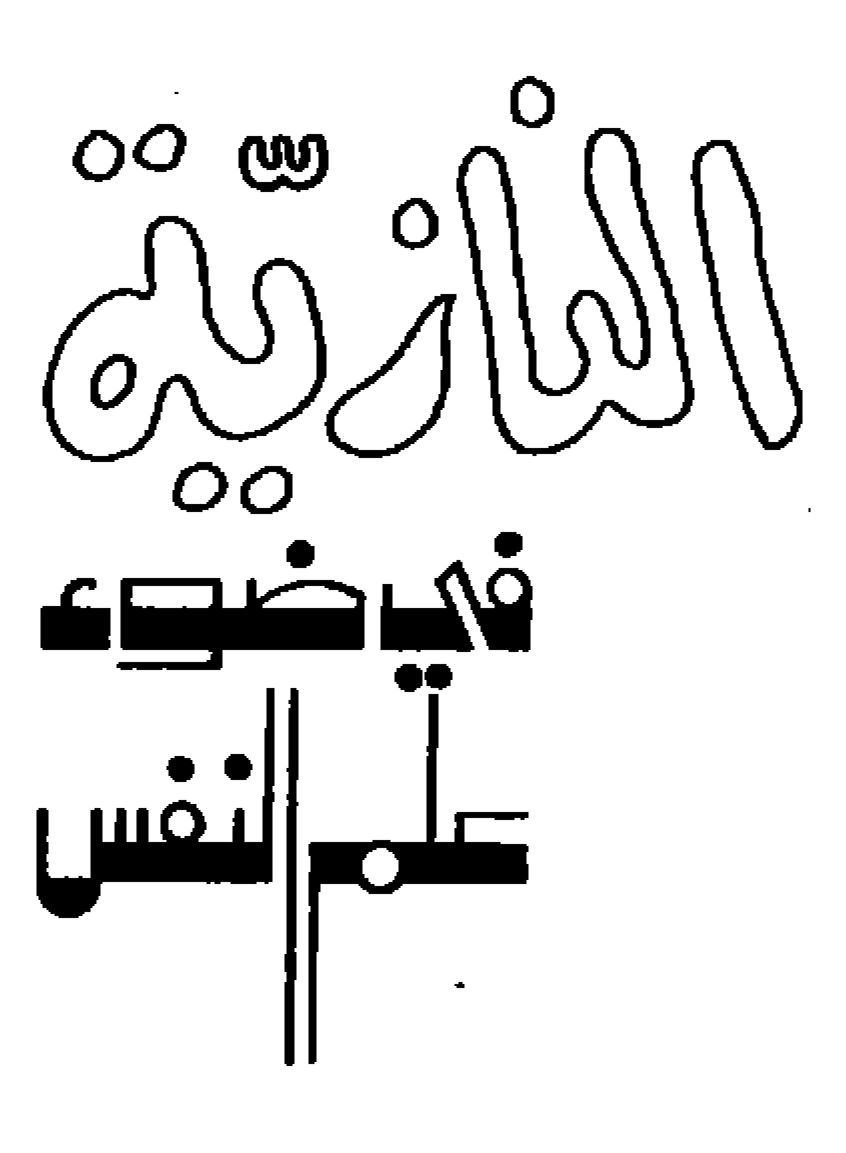
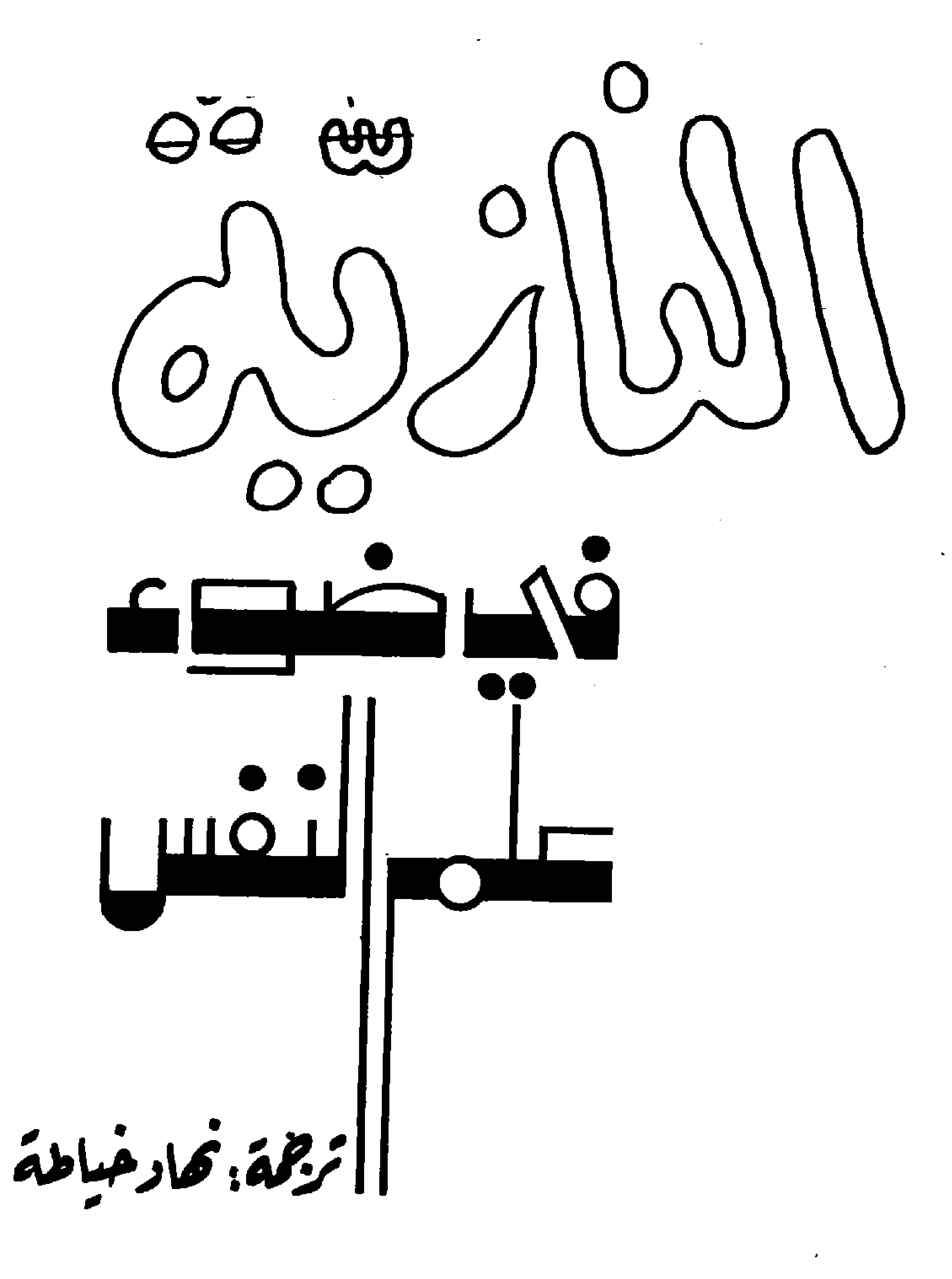
كارل غوستاف يونغ

الذاتية في ضوء علم النفس

ترجمة: نهاد خياطة


الذاتية
في ضوء
علم النفس

كارل غوستاف يونغ



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

أبحاث هذا الكتاب تُرجمت عن المجلد الرابع من أعمال
ك. غ. يونغ الكاملة الصادرة عن دار :

ROUTLEDGE & KEGAN PAUL, LTD,
LONDON
SECOND EDITION, 1970

مدخل إلى
مقالات في أحداث معاصرة *

للشفاء النفسي الطبي، لأسباب تطبيقية، علاقة بكامل النفس، النفس في كلِّيتها . لذلك فإن المرء والطبيب مضطران إلى التلاؤم مع جميع العوامل البيولوجية والاجتماعية والعقلية التي تؤثر تأثيراً حيوياً في الحياة النفسية .

إننا نعيش اليوم في أزمنة التمزق الكبير : العواطف السياسية متأججة، والفتن الداخلية أوصلت الأمم إلى حافة العماء، والأسس التي تقوم عليها نظرتنا إلى العالم قد تقوّضت . هذه الحالة الدقيقة كان لها تأثير هائل على حياة الفرد النفسية، بحيث يتعين على طبيب النفس أن يقصَّ أثرها بانتباه أكثر من المعتاد . فعاصفة الأحداث لم تعد تهب عليه من العالم الخارجي وحسب، وإنما بات يشعر بشدَّة تأثيرها حتى وهو في عيادته الهادئة وفي خصوصية الاستشارة الطبية . وبما أن عليه مسؤولية تجاه مرضاه، لم يعد

* أول نشر لهذه الافتتاحية كان في عام ١٩٤٦ (زوريخ) .

باستطاعته الانسحاب إلى جزيرة العمل العلمي التي لا يعكر هدوءها شيء، بل صار يتعين عليه النزول إلى ميدان الأحداث العالمية، وخوض معركة اصطراع الأهواء والآراء . فلو ظل منعزلاً عن الناس، لم ينجُ من مصائب عصره التي قد تلحقه من بعيد، ولم تجدْ معاناةُ مريضه منه أذناً صاغية ولا تفهماً، ولوجد نفسه عاجزاً عن معرفة كيفية التحدث معه ومدّ يد العون إليه في الخروج من عزلته .. لذلك لا يستطيع عالم النفس أن يتجنب الاصطدام مع التاريخ المعاصر، حتى ولو كانت حقيقة نفسه تحجم عن صخب السياسة وكذب الدعاية ودجل الخطابة الديماغوجية . لا حاجة بنا إلى ذكر واجباته كمواطن، التي تواجهه بمهمة مماثلة لمهمته كطبيب، وهو من هذه الناحية يقع عليه التزام أعلى تجاه البشرية .

لذلك كنت أشعر من وقت إلى آخر أني مضطر إلى أن أخطو إلى ما وراء الحدود العادية التي ترسمها طبيعة المهنة . إن خبرة عالم النفس من نوع خاص . ولقد بدا لي أن عامة الناس قد تجد من المفيد الاستماع إلى وجهة نظره . إن هذا ليس من النتائج غير الطبيعية، فقد بات من المؤكد أن معظم السذّج من غير أرباب الاختصاص قد استطاعوا أن يتبيّنوا أن كثيراً من الأشخاص والأحداث المعاصرة تتطلب تفسيراً سيكولوجياً . هل كانت الأعراض السيكوباثيَّة أوضح مما هي في المشهد السياسي المعاصر ؟

لم تكن قط رغبتي الخوض في المسائل السياسية المعاصرة . لكنني مع مرور السنين كتبت بضعة مقالات بيّنت فيها آرائي في الأحداث الراهنة . والكتاب الحالي يضم مجموعة من هذه المقالات العرضية، كتبت كلها بين

١٩٣٦ و ١٩٤٦ وكان من الطبيعي جداً أن تكون أفكاري معنيّة على الخصوص بألمانيا، التي كانت تشكل لي مشكلة منذ الحرب العالمية الأولى . ولقد أدّت إباناتي إلى أنواع لا تحصى من سوء الفهم، لا شك أن بعضها يرجع إلى أن وجهة نظري السيكولوجية تصدم الكثيرين بالجدّة والغرابة . بدلاً من امتطاء متن الحجج المطوّلة في محاولة لإزالة سوء الفهم، رأيت أن الأبسط جَمْعُ جميع الفصول في كتاباتي الأخرى التي تتناول نفس الموضوع، ووضعها في خاتمة أو كلمة أخيرة . بذلك يتاح للقارئ أخذُ صورة جلية عن الوقائع بنفسه .

فوطان Wotan
إله العاصفة والغضب

في ألمانيا سوف تنشأ شيع كثيرة،
تقترب جداً من الوثنية السعيدة .
القلب المفتون والأعطيات الكثيرة
سوف تفتح الباب لدفع ضريبة العشر الحقيقية .
ـ نبوءات ميستر ميشال نوستراداموس، ١٥٥٥ـ

عندما نعود بالذاكرة إلى ما قبل عام ١٩١٤ نجد أنفسنا نعيش في عالم من الأحداث لم نكن نفهمها في حينها . كنا بدأنا ننظر إلى الحرب بين الأمم المتحضرة على أنها خرافة من الخرافات، ظناً منا بأن مثل هذا العبث سوف يغدو أمراً بعيد الاحتمال في عالمنا العقلاني المنظم دولياً . لكن ما حدث بعد الحرب كان « سبْتَ ساحرات » حقيقياً . ثورات خيالية في كل مكان، تغييرات عنيفة للخريطة، عودة بالسياسة إلى النماذج الأولية الوسيطة أو حتى القديمة، دول توتاليتارية تبتلع جارات لها وتبذّ جميع الثيوقراطيات السابقة في ادعاءاتها المطلقة، اضطهاد المسيحيين

واليهود، قتل سياسي بالجملة، وأخيراً شهدنا غارة قرصانية على شعب مسالم نصف متحضر* .

أما وأن مثل هذه الأحداث تحدث في العالم الواسع، فإننا لا نستغرب أبداً أن تكون هناك مظاهر غريبة على نطاق أصغر في مجالات أخرى . في مجال الفلسفة، يتعين علينا أن ننتظر بعض الوقت حتى نستطيع الحكم على هذا العصر الذي نعيش فيه . أما في مجال الدين، فيمكننا على الفور رؤية بعض الأشياء الهامة وهي تحدث أمام أعيننا . إننا لا نستغرب أن تحل « حركة اللا إله » الروسية محل روائع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ــ والحق أن أحدنا ليتنفس الصعداء عندما يطلع من ضباب كنيسة أرثوذكسية وفيها ذلك الحشد الهائل من المصابيح ويدخل مسجداً بسيطاً (= ساذجاً = ساده) حيث لا ينافس بذخ الممتلكات المقدسة حضورَ « الله » العليّ الذي لا يُرى . لقد كان أمراً لا مفر منه أن يشرق في روسيا يوماً فجر تنوير القرن التاسع عشر، ذلك الرجع « العلميّ » الذي يفتقر إلى الذوق والذكاء افتقاراً يستدرُّ منا الشفقة، فضلاً عن انخفاض مستواه الروحي الذي يبعث على الأسف الشديد .

لكن الأغرب، بل والمؤلم إلى حد كبير، أن يستيقظ وينشط من جديد إله قديم كما يستيقظ وينشط بركان خامد ـــ هذا الإله هو إله العاصفة والغضب والهياج، الذي ظل نائماً طوال هذه المدة في بلد متحضر كان يفترض أنه تخطّى القرون الوسطى منذ زمن بعيد . لقد رأيناه

* يريد الحبشة (أثيوبيا) .

يبعث حياً في هيئة « حركة الشبيبة الألمانية » ويُراق على شرف انبعاثه دم عدد من الشياه عند بدء تأسيسها . فقد كان الشبان الشقر، وأحياناً الشابات، وقد تجهزوا بالحقيبة وآلة العود، يشاهَدون متسكعين لا يقر لهم قرار على كل طريق من « الرأس الشمالي » حتى صقليا، عبّاداً مخلصين للإله الجوّال . وقبيل نهاية « جمهورية فاريمار »، نجد ألوف العاطلين الذين كنا نلقاهم في كل مكان هائمين على وجوههم من غير ما هدف يقومون بدور الإله الجوّال . لكنهم في عام ١٩٣٣ توقفوا عن التسكّع والتَّجوال، ونظَّموا صفوفهم في مئات الألوف . لقد شكّلوا الحركة الهتلرية التي أركعت ألمانيا بكاملها عند قدميها، بالمعنى الحرفي للكلمة، بدءاً من الطفل الذي عمره خمس سنوات وانتهاءاً بالشيوخ المخضرمين، وجاءت بمشهد رأينا فيه أمة تنتقل من مكان إلى آخر . كان « فوطان » الجوّال قد باشر الحركة . كان يمكن رؤيته، وقد ارتسمت على وجهه علامات الخجل، في منزل اجتمعت فيه طائفة من أناس بسطاء في شمالي ألمانيا، من وراء حجاب المسيح ممتطياً صهوة حصان أبيض . لا أدري إن كان هؤلاء القوم على علم بالرابطة القديمة التي تربط « فوطان » بشخص المسيح وديونيسوس، لكن هذا ليس محتملاً جداً .

إن « فوطان » إله جوّال متنقّل يخلق القلق ويثير المنازعات مرة هنا وتارة هناك، ويزاول السحر . سرعان ما حوّلته المسيحية إلى شيطان، ولم يعد يعيش إلا في مأثورات محلية باهتة كصياد شبحيّ يُشاهَد مع حاشيته وهو يضطرب كما يضطرب السراب في ليل عاصف . في القرون الوسطى، أخذ دور الجوّال القلق أحشويرش، اليهودي التائه، الذي لم تكن

شخصيته في اسطورة يهودية بل مسيحية . لقد أُسْقِط موضوع اليهودي التائه، الذي لم يقبل المسيح، على اليهود بنفس الطريقة التي نعود فيها اليوم فنكتشف محتوياتنا النفسية الخافية في أناس آخرين . على كل حال، إن تصادف معاداة السامية مع يقظة « فوطان » من جديد لهو من الدقائق السيكولوجية التي يجدر ذكرها .

الشبيبـة الألمـانيـة التي احتفلت بيوم الاعتدال الشمسي بذبح قرابين الشياه لم تكن أول من سمع خشّةً في الغابة الأولية، أعني غابة الخافية . لقد سبقهم إلى استماعها كل من نيتشيه وشولر واستيفان جورج ولودفيغ كلايجز* . والمأثور الأدبي في بلاد الراين والريف الواقع إلى جنوبي إقليم

---

* منـذ أيـام نيتشيـه (١٨٤٤ – ١٩٠٠) كان ثمة توكيد شـديد على الجانب « الديونيسي » من الحياة في مقابل جانبها « الأبولياني المضـاد » . منذ « ميلاد التراجيديا » (١٨٧٢)، استولى الجانب المؤنث، الأرضي، المظلم، بخصائصه التكهنية والتبذّلية على مخيّلة الفلاسفة والشعراء . ثم مالبث أن أصبح غير المعقول مثلاً أعلى؛ نجد هذا، على سبيل المثال في بحث الفرد شولر (ت ١٩٢٣) في سر الأديان، وخصوصـاً في كتابات كلايجز (ولد ١٨٧٢ توفي ١٩٥٦)، الذي طرح فلسفة « اللاعقلانية » . في نظر كلايجز، اللوغوس والوعي مدمّران للحياة المبدعة التي تستبق الوعي . لدى هؤلاء الكتاب نشهد أصل الرفض التدريجي للواقع ونفي الحياة كما هي . وهذا يفضي في النهاية إلى عبادة الوجد Culf of ecstasy التي يتوّجها انحلال ذاتي للواعية بالموت، الذي يعني عندهم قهر الحدود المادية . ←

« ماين »، ذو طابع كلاسيكي لايمكن التخلص منه بسهولة . كل تفسير للسكر أو الجذل يمكن أن نعود به إلى نماذج كلاسيكية، إلى ديونيسوس و« إيروس الكوسموغوني »* . لا شك أن تفسير هذه الأشياء من منطلق ديونيسي يقرع نغمة عذبة في الآذان الأكاديمية، لكن « فوطان » قد يكون أصح تفسيراً . فهو إله العاصفة والغضب، الذي يطلق العنان للأهواء والشهوات ولاسيما شهوة القتال . زد على ذلك أنه الساحر والفنان الأكبر في مجال الوهم المتمكن من جميع الأسرار ذات الطابع الخفائي .

أمـا نيتشيـه فقد كان حالة خاصــة . إذ لم تكن له معرفة بالأدب الجرماني . وقد أدى إعلانه أن « الله ميت » إلى مقابلة زرادشت مع إله مجهول على نحو غير متوقع . فقد كان يتوجه إليه أحياناً على أنه عدو، وأحياناً كان يختفي وراء قناع زرادشت نفسه . فقد كان زرادشت أيضاً عرّافاً وساحراً وريحاً عاصفة .

← أشعـار استيفـان جورج (١٨٦٨ - ١٩٣٣) تضم عنـاصر من الحضــارة الكـلاسيكية والمسيحية الوسيطة والتصوف الشرقي . لقد هاجم جورج عامداً عقلانية القرنين التاسع عشر والعشرين . وكان لرسالته الأرستقراطية عن الجمال المستطيقي (= الصوفي) والفهم الباطني للتاريخ تأثيراً عميق في الشبيبة الألمانية . لقد استغل سياسيون عديمو الضمير عمله لأغراض الدعاية . ـــ المؤلف .

* من أهم مؤلفات كلايجز كان أول نشر له في ١٩٢٢ .

وكالريح لآتِيَنَّ وأهُبَّنَّ فيما بينهم، وبروحي لأنزَعنَّ النَفَس من روحهم؛ هكذا يريده مستقبلي .

حقاً إن زرادِشت لريح شديدة على كل الذين يَسْفُلون؛ وهذه النصيحة يُسْديها لكل من يصق ويتقيّأ :

« إياكم والبصاقَ في وجه الريح »

وعندما رأى زرادشت في الحلم أنه كان حارس قبور « قلعة الموت الجبلية »، وأنه كان يبذل جهداً شاقاً لفتح البوابات، فجأةً .

ريح مزمجرة دكتّ الأبوب دكّاً؛ تصفر وتصرخ وتعنُفُ وتلقي تابوتاً أسود أمامي .

ووسط الزمجرة والصفير والصراخ ينفجر التابوت وتنطلق منه ألف قهقهة .

التلميذ الذي فسر له الحلم يقول لزرادشت :

ألَسْتَ أنت نفسك الريح ذات الزمجرة الهائلة، التي دكّت أبواب قلعة الموت ؟

ألسْتَ أنت نفسك التابوت الذي امتلأ بمتع الحياة الخبيثة وتكشيرات الملائكة ؟

في عام ١٨٦٣أو ١٨٦٤ كتب نيتشيه في قصيدته « إلى الإله المجهول »، يقول :

لسوف أعرفك أيها المجهول،
الذي يحث في أعماق روحي،
ويهب في حياتي كالعاصفة،

لا تُدْرَك، ومع ذلك أنت قريبي !
لسوف أعرفك وأقوم بخدمتك .

بعد عشرين عاماً قال في قصيدته « أنشودة ريح الشمال » :

أيتها الريح الشمالية، يا طاردة الغيوم،
يا قاتلة الظلام، وكانسة الأجواء،
أيتها الريح العاصفة غضباً، ما أشد حبّي لك !
ألسنا كلانا أُولى ثمرات
نفس الرحم، المقدّر لها أبداً
أن تؤول إلى نفس المصير ؟

وفي خماسيّته المعروفة باسم « نواح أرديان »، يغدو نيتشيه ضحيةً للإله الصياد :

منطرحاً، مرتعداً،
مثل شيء نصف ميت قدماه دافئتان،
تقلّبه حمّيات مجهولة،
يرتجف من سهام صقيعية، جامدة، ثاقبة
أنت أوقعْته في مصيدتك، أيها الفكر،
الذي لا يُنطَق، أيها المحجوب، الرهيب !
أنت الصياد وراء الغيوم،
لقد طرحْتَهُ أرضاً بسهم صاعقتك
أنت يا ذا العين الهازئة التي تحدّق فيّ من قلب الظلام !
هكذا اضطجع،

ملتوياً، مبروماً، معذباً
بجميع العذابات الأبدية،
لقد طرحْتَني أرضاً،
أيها الصياد الشرس،
أنت يا هذا الإله المجهول !

هذه الصورة الرائعة التي رسمها نيتشيه للإله ـــ الصياد ليست مجرد شكل حماسي من أشكال الكلام، بل هي مبنيّة على خبرة كان خبرها طفلاً في الخامسة عشرة في « بفورتا » . وقد جاء وصف هذه الخبرة في كتاب وضعته أخته اليزابت فورستر نيتشيه . كان يتجول ليلاً في غابة مظلمة عندما روّعتْهُ « صرخة صدرت عن مصحّ عقلي جمد لها الدم في عروقه »، ما لبث بعدها أن تقابل وجهاً لوجه مع صياد « له ملامح وحشية وغريبة » . مُثبتاً صفّارته إلى شفتيه في وادٍ تحيط به شجيرات بريّة، صفر صفرة حادّة صُعق لها نيتشيه . ولما أفاق من غيبوبته وجد نفسه ثانية في « بفورتا » . لقد كان كابوساً . ومما له أهمية الإشارة إلى أن الذي كان ينوي الذهاب إلى « آيزلبن »، بلدة لوثر، وجد نفسه بالحلم يبحث مع الصياد مسألة الذهاب إلى « وادي الجرمان » بدلاً من ذلك . ما من أحد إلا وعنده أذنان يسمع بهما يمكنه أن يخطئ فهم الصفير الحاد يصدر عن إله العاصفة في الغابة الليلة .

ما الذي حمل نيتشيه على تسمية الله بديونيسوس بدلاً من « فوكان » ؟ هل كان حقاً فقط هو الفيلولوجي الكلاسيكي المتمثل في نيتشيه ؟ أم أن ذلك يرجع إلى لقائه المصيري مع فاغنر ؟

برونو غوتز، في كتابه Reich Ohne Raum، الذي كان أول نشر له في 1919 شاهد سر الأحداث القادمة في ألمانيا في هيئة رؤيا غريبة جداً . أن أنّسَ لا أنسى هذا الكتيّب الصغير، لأنه استوقفني في حينه كنبوءة الأرصاد الجوية عن حالة الطقس في ألمانيا . لقد توقع غوتز أن ينشب صراع بين الأفكار والحياة، بين فوطان ذي الطبيعة المزدوجة بصفته إلهاً للعاصفة وصفته إلهاً لسر الفنون . لقد توارى « فوطان » عن الأنظار عندما سقطت أعمدته، لكنه عاد إلى الظهور عندما اتضح أن الإله المسيحي أضعف من أن ينقذ الإخوة المسيحيين من التذابح . ولما لم يستطع الأب المقدس (= البابا) غير البكاء عجزاً أمام الله على مصير « القطيع المشتّت » ، ضحك الصياد الأعور العجوز، الواقف عند حافّة الغابة الألمانية وأسرج حصانه سلايفنير .

نحن نؤمن بأن العالم الحديث عالم معقول، مستندين في إيماننا هذا إلى عوامل اقتصادية وسياسية وسيكولوجية . لكن لو نسينا لحظة أننا نعيش في العام ١٩٣٦ للميلاد، وطرحنا جانباً معقوليتنا الهادفة المفرطة في بشريتها، وحمّلنا الإله أو الآلهة مسؤولية الأحداث المعاصرة بدلاً من تحميلها للإنسان، إذن لوجدنا « فوطان » مناسباً تماماً كفرضيّة سببية . وبودّي أن أخاطر بطرح رأي يتسم بالهرطقة فأقول أن أعماق شخصية « فوطان » التي لا يُسْبَر غَوْرُها حقيقة بأن تفسر لنا ظاهرة الاشتراكية القومية (= النازية) أكثر مما تفسرها هذه العوامل الثلاثة المعقولة مجتمعةً . لاشك في أن كلاً من هذه العوامل يفسر جانباً هاماً مما يحدث في ألمانيا، لكن « فوطان » يظل يفسّر أكثر مع ذلك . لأنه ينوّرنا، على

وجه الخصوص، عن ظاهرة عامة غريبة على كل من ليس بألماني، وتظل غير مفهومة حتى بعد التأمل العميق .

ولعلنا نستطيع إيجاز هذه الظاهرة العامة بـ « الاستلاب » أو « الاستحواذ » Ergriffenheit . والاصطلاح يشتمل على السالب والمسلوب جميعاً . فـ « فوطان » هو سالب الناس أو المستحوذ عليهم، وما لم يرغب المرء في تأليه هتلر ـــ وهو ما حدث فعلاً ـــ يكن هو التفسير الوحيد بحق . صحيح أن « فوطان » يشترك في هذه الصفة مع ابن عمه ديونيسوس، لكنْ هذا يبدو أنه قد حظي بنفوذ هام عند النساء بصفة رئيسية . فالنسوة الهائجات maenads كنّ نوعاً من مظليات الصاعقة، وكنّ خطرات جداً على ما ترويه الأسطورة . أما « فوطان » فقد اقتصر على المحاربين الأشداء berserkers الذين وجدوا حرفتهم في القمصان السود التابعين لملوك أسطوريين .

العقل الذي لايزال طفلاً يظن الآلهة كائناتٍ ميتافيزيقية موجودة في معزل عن العالم، أو يعتبرها اختراعات خرافية أو للتسلية . من أيٍّ من وجهتي النظر، فإن التوازي بين « فوطان » الذي بُعث حيّاً من جديد، وبين العاصفة النفسية والسياسية والاجتماعية التي تزلزل ألمانيا، قد تكون له على الأقل قيمة الأمثال . لكن بما أن الآلهة تشخيصات للقوى النفسية، فإن توكيد وجودها الميتافيزيقي افتراض عقلي بمقدار ما هو كذلك القول بأنها مخترعات اخترعها العقل . لكنني لا أعني أن « للقوى النفسية » علاقة بالعقل الواعي، من حيث أننا مولعون بفكرة كون الواعية والنفس

(سايكي) أمرينْ متماثلينْ أو هما شيء واحد . هذه الفكرة ما هي إلا افتراض عقلي آخر . إن ما أعنيه هو أن « القوى النفسية » ذات صلة بالخافية أكثر من صلتها بالواعية بكثير . والحق أن لهوسنا بالتفسيرات العقلية جذوره في خوفنا من الأشياء الميتافيزيقية، لأن الإثنين (العقل والميتافيزيقا) كانا دائماً أخوينْ متحاربينْ . لذلك نعتبر كل شيء غير متوقع يقرّبنا من ذلك المجال المظلم إما آتياً من الخارج وبالتالي صحيح، أم هو هلوسة وبالتالي غير صحيح . والفكرة القائلة بحقيقية شيء أو صحة شيء غير آت من خارج تكاد أن تبدأ بالإشراق على الإنسان المعاصر .

ولعله كان بإمكاننا، من أجل فهم أفضل وتجنباً لانحياز، أن نستغني عن اسم « فوطان »، ونتكلم عن « الغضب التوتوني » بدلاً منه . لكننا نكون عندئذٍ قد قلنا الشيء نفسه، لكن ليس بنفس الدقة . ذلك أن الغضب، في هذه الحالة، ليس إلا صياغة سيكولوجية لـ « فوطان »، ولا يقول لنا شيئاً أكثر من أن الألمان هم في حالة « غضب »، بحيث لا نرى أخص ملامح هذه الظاهرة في كليّتها، أي المظهر الدرامي للسالب والمسلوب . الشيء الذي يلفت النظر في الظاهرة الألمانية هو أن رجلاً واحداً « مسلوباً » نقل عدوى استلابه إلى أمة بكاملها حتى لقد غدا كل شيء يتدحرج نحو الهلاك .

يبدو لي أن فرضية « فوطان » تصيب الهدف . واضح أنه كان نائماً فعلاً في جبل « كِفْهاوزر » إلى أن نادتْه الغربان وأعلنت له انبثاق الفجر . فهو صفة أساسية من صفات النفس الألمانية، عامل نفسي غير عقلاني يعمل على ضغط الحضارة العالي فينسفها نسفاً . إن عبّاد « فوطان » على

الرغم من غرابة أطوارهم، يبدون وكأنهم قد رأوا الأشياء بصورة أصح من عبّاد العقل . من الواضح أننا كلّنا نسينا أن « فوطان » هو مُعْطى جرماني (أو حقيقة جرمانية) في الدرجة الأولى من الأهمية، وأصدق تعبير عن الصفة الأساسية التي يتصف بها الألمان وأعظم تشخيص لها . التوكيد على العرق الجرماني (أو « الآري » كما يُسمّى بالعامية)، وعلى التراث الجرماني، والدم والتراب، وعلى أناشيد الـ « واغالاوايا »* ورحلة الـ « ولْكيري »، وعلى يسوع بطلاً أشقر وأزرق العينيْن، وعلى والدة القديس بولس الإغريقية، وعلى الشيطان متخفّياً وراء قناع يهودي أو ماسوني، وعلى الفجر الشمالي (النورديكي) مصباحاً للحضارة، وعلى العروق المتوسطية المتدنيّة ــ كل هذا يشكل المشهد الذي لا غنى عنه من أجل الدرامة التي تجري أحداثها الآن، وهي تعني في العمق شيئاً واحداً : إله استحوذ على الألمان وبات منزلهم ممتلئاً بـ «ريح صَرْصَرٍ عاتية » . بعد استيلاء هتلر على السلطة بوقت قصير، ان لم أكن مخطئاً، ظهر في مجلة « بنش » رسم يمثل محارباً شمالياً مسعوراً يحطم الأغلال التي كان مقيّداً بها . إن أعصاراً قد اجتح ألمانيا بينما لانزال نعتقد أن الطقس صاح .

أما في سويسرا فالأشياء هادئة بالمقارنة، وإن كانت تهب أحياناً ريح من الشمال والجنوب، ويكون لها أحياناً صوت يبعث على قليل من التشاؤم، وأحياناً تهمس بدون أذى بل على نحو مثالي لا يرتاع له أحد .

---

* تمثّلاً باللازمات التي لا معنى لها التي تنشدها عذارى الراين في دورة « خاتم فاغنر » : Weia ! Waga ! Wagalaweia ! .

« دع الكلاب تتمدد على الأرض » ــ لقد استطعنا أن نعمل بهذه الحكمة . يقال أحياناً أن السويسريين يكرهون أن يجعلوا من أنفسهم مشكلة . يجب عليّ أن أدحض هذه التهمة : السويسريون أيضاً لهم مشاكلهم، لكنهم لا يسلمون بذلك أبداً، حتى ولو عرفوا إلى أين تهب الريح . بذلك ندفع الضريبة إلى زمن العاصفة والشدّة في ألمانيا، لكننا لا نذكرها أبداً، وهذا يتيح لنا الشعور بالتفوق .

فوق كل شيء، يتوفر للألمان فرصة، وربما كانت هي الوحيدة في التاريخ، ينظرون بها في قلوبهم ويتعلمون ما هي أخطار الروح التي حاولت المسيحية أن تنقذ البشرية منها . فألمانيا هي بلاد الكوارث الروحية، حيث لم تفعل الطبيعة غير ادعاء سلام مع العقل الذي يحكم العالم . إن ما يعكر السلام ريح تهب على أوروبا آتية من اتساع آسيا، تجتاح الأمم أمامها على جبهة واسعة تمتد من ترقيا حتى البلطيق، وتبددهم كأوراق يابسة، أو توحي بأفكار تزلزل أساسات العالم . إنه ديونيسوس عنصري (من عناصر الطبيعة) يقتحم النظام الأبولياني . إن مُثير هذه العاصفة يُسمّى « فوطان »، ونستطيع أن نتعلّم عنه الشيء الكثير من الفوضى السياسية والفوران الروحي الذي سبّبه على مدى التاريخ . غير أننا لو أردنا أن نبحث في شخصيّته بصورة أدقّ لتعيّن علينا العودة إلى عصر الأساطير الذي لم يكن يفسر كل شيء بلغة الإنسان وقدرته المحدودة، بل يبحث في السبب الأعمق الكامن في النفس وقواها المستقلة . لقد شخّص الحدس البشري هذه القوى في هيئة آلهة ووصفها في الأساطير وصفاً مفصلاً ودقيقاً تبعاً لشخصياتها المختلفة . ويحدث هذا التشخيص باستعداد أكبر

بفضل النماذج والصُّوَر البذْئية التي تضرب جذورها في خافية كثير من العروق البشرية وتؤثر فيها تأثيراً مباشراً . وبما أن سلوك عرق يتخذ هيئة خاصة من صوره القابعة في العمق، يمكننا ان نتكلم عن نموذج بذْئي أسمه « فوطان » . إن « فوطان »، بما هو عامل نفسي مستقل، ينتج آثار في الحياة الجمعية لشعب ما فيكشف عن طبيعته الخاصة . ذلك لأن لـ « فوطان » بيولوجية خاصة به تجعله في معزل تام عن طبيعة الإنسان . ومن وقت لآخر يقع الأفراد تحت تأثير هذا العامل الخفي الذي لا يقاوم . أما عندما يكون هادئاً فلا نعود نعرف عن نموذج « فوطان » أكثر من كونه صَرَعاً كامناً . تُرى هل كان بوسع الألمان الذين كانوا في سن الشباب في ١٩١٤ أن يستشرفوا حدوث ما حدث اليوم ؟ هذه التغيرات المذهلة إنْ هي إلا ثمرة من ثمار إله الريح التي « تهب حيث تشاء، وأنت تسمع صوت هبوبها، لكنك لا تستطيع أن تخبرنا من أين تأتي ولا إلى أين ذاهبة » . تمسك بكل شيء يقع في مهبّها وتقلب كل شيء غير ثابت الجذور . عندما تهب الريح تزلزل كل شيء ليس في مأمن، من الخارج أو من الداخل .

نشر مؤخراً مارتن نِنْك بحثاً* يعتبر خير إضافة على معرفتنا بطبيعة « فوطان » . لا حاجة بالقارئ لأن يخشى من أن يكون هذا الكتاب مجرد دراسة علمية كتبت في عزلة أكاديمية بعيدة عن الموضوع . في هذا الكتاب نجد حق الموضوعية العلمية محفوظاً تماماً، والمادة قد جمعت

* Wodan und Germanischer Schicksalslaube .

بإحاطة خارقة للعادة وعُرِضت بشكل جليّ غير عادي . لكن فوق كل شـيء يشعر المرء بأن المؤلف مهتم بموضـوعه اهتماماً شـديداً، وأن وَتَر « فوطان » يهتز في داخله أيضاً . إن هذا ليس نقداً ـــ على العكس إنه من مزايـا الكتــاب الرئيسيــة الذي لولا هذا الحمـاس لانحدر إلى مستوى « كاتالوغ » تافه يبعث على الملل .

في هذا الكتاب يرسم نِنْك، بالخطوط العريضة، صورة فخمة للنموذج البِدْئي الألماني، « فوطان » . يصفه في عشرة فصول، مستفيداً من جميع المصادر المتوفرة، بالمحارب المسعور، بإله العاصفة، بالتائه، بالمقاتل، بإله الشهوة السحرية، بإله الحب، بربّ الأموات ورب الأبطال الموتى، رب المعـرفـة السـريـة، السـاحر، إله الشـعراء . لم ينْسَ الـ «فِلْكزيز » ولا الـ « فِلْغيـا »*، لأنهمـا يشكـلان جزءاً من القطـاع الميثولوجية والأهمية المصيرية لـ « فوطان » . إن بحث نِنْك في اسم « فوطان » وأصله لذو دلالة خاصــة، إذ يبيّن أن « فوطان » ليس إلهاً للغضب والهياج الذي يجسّد الجانب الغريزي والانفعـال من الخافية وحسب، وإنما يتجلى فيه أيضـاً جـانبــه الذي يتمثـل في الحدس والوحي، لأنه يفهـم أسـرار الحروف ويستطيع أن يفسر القدر .

لقد عَمَد الرومان إلى مواحدة « فوطان » بعطارد (مركوري)، لكن شخصيته لا تتطابق تماماً مع أيٍّ من آلهة الرومان أو الإغريق، على الرغم من وجود بعض أوجه الشبه . فهو جوّال مثل عطارد، ويحكم الأموات

* الروح الملازم للإنسان في هيئة حيوان . ؟؟؟؟؟؟؟

مثل بلوتو وكرونوس، ويقترب من ديونيسوس من حيث هياجه وانفعاله، وخصوصاً في جانبه النُّبوئي . ومن عجب أن نِنْك لم يذكر هرمز، إله الوحي، الذي يقترن بالريح، وشأنه في هذا كشأن « نيوما » و« نُوس » (أو الروح والعقل، ترتيباً ـــ المترجم) . وقد يكون، أي هرمز، صلة الوصل بين الروح المسيحي ومعجزة العنصرة . وهو باعتباره بُويْمندرز (راعي البشر)، يستحوذ على الناس كما يفعل « فوطان » . يبيّن نِنْك، مُحِقاً، أن ديونيسوس وآلهة الإغريق الآخرين ظلّوا خاضعين إلى سلطة زيوس العليا، الأمر الذي يدل على فرق أساسي بين المزاجين الإغريقي والجرماني . يذهب نِنْك إلى أن ثمة قرابة بين « فوطان » و« كرونوس » وأن اندحار الأخير قد يكون علامة على أن النموذج البدْئي الذي يمثله « فوطان » قد اندحر وتمزّق في أزمنة ما قبل التاريخ . في كل الأحوال، **يمثّل الإله الجرماني حالة الكلّية totality على مستوى بدائي جداً، أي شرطاً سيكولوجياً تكون فيه إرادة الإنسان متواحدة مع إرادة الله،** ويكون فيه الإنسان تحت رحمته كلّية . لكن الإغريق كان لديهم آلهة تساعدهم على آلهة أخرى . والحق أن « زيوس » الكلّي الأبوّة نفسه ليس بعيداً عن المثل الأعلى الذي ينطوي على مستبد عادل مستنير .

ليس من طبيعة « فوطان » أن يبقى طويلاً ويُبدي عن علامات تدل على شيخوخة وضعف . وعندما دار عليه الزمان توارى عن الأنظار وبقي غير مَرْئيّ مدة تزيد على ألف سنة، يعمل مُغْفَل الاسم وبصورة غير مباشرة . فالنماذج لبدْئية أشبه ما تكون بأسرّة الأنهار التي تنشف إذا تهجرها المياه، لكنها قد تجدها في كل وقت . والنموذج البدْئي مثل مجرى

مائي قديم ظل ماء الحياة يجري فيه قروناً، وهو يحفر لنفسه قناة عميقة . كلما طال جرْيُهُ فيه أصبح أكثر احتمالاً أن يعود إلى مجراه القديم، إنْ عاجلاً أو آجلاً . إن حياة الفرد، بما هو عضو في المجتمع وخصوصاً بما هو جزء من الدولة، قد تُنظَّم كما تنظَّم القناة، لكن حياة الأمم أشبه بنهر متدفق عظيم خارج كلّياً عن تحكم الإنسان، هي في يد **الواحد** الذي هو دائماً أقوى من البشر . إن عصبة الأمم، التي كان مفروضاً أن تتمتع بسلطة على جميع أمم العالم، يعتبرها بعضهم طفلاً يحتاج إلى الرعاية والحماية، ويعتبرها بعضهم مولوداً جهيضاً . هكذا تتدحرج حياة الأمم بدون كابح يوقفها من الانهيار، بدون مرشد يرشدها، وبدون أن تدري إلى أين تذهب، مثل صخرة تنحدر من حالق، إلى أن تعترضها عقبة أشد منها قوة فتصدّها . الأحداث السياسية تنتقل من عقبة إلى أخرى كالسيل تمسكه الأخاديد والجداول والمستنقعات . كل سيطرة للبشر تنتهي عندما يقع الفرد وسط حركة المجموع، وعندئذٍ يبدأ فعل النموذج البدْئي، كما يحدث أيضاً في حَيَوات الأفرد عندما يُواجَهون بأوضاع لا يمكن أن تعالَج بإحدى الطرق المألوفة . **لكن ماذا يفعل من يُسمّى بالزعيم Führer بحركة مجموعية نستطيع أن نراها جهرةً إذا التفتنا إلى الشمال أو إلى الجنوب من بلادنا** (= سويسرا) .

النموذج البدْئي السائد لا يظل هو نفسه إلى الأبد، كما هو واضح من الحدود الزمنية التي رسمت لحكم السلام المأمول، أعني « رائخ ألف السنة » . إن النموذج الأبوي المتوسطي الذي يمثل المستبد العادل والمحب للنظام قد انشطر مِزَقاً فوق أوروبا الشمالية،، كما يشهد على ذلك المصير

الحالي الذي آلت إليه الكنائس المسيحية . والفاشية في إيطاليا، والحرب الأهلية في إسبانيا، قد أظهرتا أن الطامّة الواقعة في الجنوب أيضاً هي أكبر مما كان متوقعاً . حتى الكنيسة الكاثوليكية لم يعد بوسعها أن تستعرض قوتها .

لقد شن الإله القومي هجوماً على المسيحية على جبهة واسعة . في روسيا اسمه **التكنولوجيا والعلم**، وفي إيطاليا **الدوتشي**، وفي ألمانيا « الإيمان الألماني »، أو « المسيحية الألمانية »، أو « الدولة » . و« المسيحيون الألمان »* غير متفقين على الاصطلاح، وهم يفعلون خيراً لو ينضمون إلى « حركة الإيمان الألماني » التي يتزعمها هاور** . هؤلاء أناس محترمون

---

* حركة اشتراكية قومية في قلب الكنيسة البروتستانتية ترمي إلى إزالة جميع آثار « العهد القديم » من المسيحية .

** ويلهلم هاور (ولد١٨٨١) بدأ حياته مبشراً ثم أستاذاً للسنسكريتية في جامعة توبنغن . كان مؤسساً وزعيماً لـ « حركة الإيمان الألماني » . وكانت ترمي إلى تشييد « إيمان ألماني » مؤسس على كتابات ومأثورات ألمانية ونوردية (شمالية)؛ من مثل كتابات أكهارت وغوتيه . وكانت هذه الحركة تسعى إلى جمع عدد من التيارات المختلفة وأحياناً المتناقضة : كان بعض أعضائها يؤمن بصيغة منتقاة من المسيحية، وآخرون يناوئون لا المسيحية وحسب وإنما كل نوع من الدين أو الإيمان بإله . من أركان الإيمان التي اعتمدتها الحركة في عام ١٩٣٤: « حركة الإيمان الألماني ترمي إلى البعث الديني للأمة من←

ذوو نيات طيبة ويسلمون بأنهم قومٍ مستَلَبون وهم يحاولون التوافق مع هذه الحقيقـة الجديدة التي لا يمكن أحداً أن ينكرها . يكلّفون أنفسهم أشد العناء لكي تبدو هذه الحقيقة أقل تهويلاً إذ يلبسونها رداء مصالحة تاريخية، ويعطوننا إلماعات معزّية عن أشخاص عظام من مثل المعلم أكهارت الذي كان ألمتنياً ومستَلَباً أيضاً . بذلك يصبح السؤال السمج الذي يسأل عمّن يكون هو السالب سؤالاً لا محل له . لقد كان دائماً هو « الله » . لكن « هاور » كلما ضيق دائرة الثقافة الهندة ــــ أوروبية الواسعة وقَصَرَها على

← الأسس الموروثة في العرق الألماني » . إن روح هذه الحركة يمكن مقابلته بالموعظة التي ألقـاها الدكتور لانغمـان، كاهن إنجيلي وشخصيـة كبيرة من شخصيات الكنيســة، في جنـازة غوستْلوف . ألقى الدكتور لانغمان خطبته مرتدياً ثياباً وجزمة عسكرية . لقد حول رحلة المتوفّى من الجحيم إلى « فَلْهلاّ »، إلى مثوى سيغفريد وبَلْدُ، البطلين اللذين « يغذيان حياة الشعب الألماني بتقريب دمهما قرباناً » كالمسيح في جملة آخرين . « ليرسلْ هذا الإله أم الآرض وهي تصلصل في طريقها عبر التاريخ » . « ربنا بارك لنا كفاحنا آمين » . هكذا اختتم الكاهن المحترم خطبته، على حدّ ما جاء في صحيفة « نويه زورخر زايتونغ » (١٩٣٦، العدد ٢٤٩) . كخدمة أقيمت لـ« فوطان » لا شك أنها كانت بناءة جداً ــــ بل ومتسامحة بشكل لافت نحو المؤمنين بالمسيح . تُرى هل تميل كنائسنا اليوم إلى التسامح فتبشر بأن المسيح قد أراق دمه من أجل خلاص البشرية، مثل سيغفريد وبلدور وأودين في جملة آلهة آخرين ؟ لعلنا نستطيع أن نسأل أسئلة غريبة في هذه الأيام .

« النوردية » (=الشمالية) عموماً، وعلى « الإدّا » خصوصاً، وأصبح هذا الإيمان « الألماني » مظهراً للاستلاب، اتضح بشكل أشد إيلاماً أن الإله « الألماني » هو إله الألمان .

لا يسع أحداً أن يقرأ كتاب « هاور »* من دون أن ينفعل، خصوصاً إذا كان يعتبره جهداً مضنياً وبطولياً بذله عالم صاحب وجدان دعاه بقوة صوت غير مسموع، لا يدري كيف حدث له، جاءه من قبل سالبه، وهو الآن يحاول بكل ما أوتي من قوة، وبكل ما لديه من معرفة وقدرة، أن يبني جسراً بين قوى الحياة المظلمة وعالم الأفكار التاريخية المنير . لكن ماذا تعني لإنسان اليوم جميع جمالات الماضي الآتية من مستويات ثقافية مختلفة اختلافاً كلياً عندما يتقابل مع إله حي قَبَلي لا يُسبَرُ غَوْرُهُ ولم يسبق له أن اختبر من قبل مثل هذه الخبرة ؟ لا شك أنها تتبدد كما تتبدد الأوراق اليابسة في الزوبعة العاصفة، وتختلط سجْعيّات « إدّا » الإيقاعية بالنصوص الصوفية المسيحية والشعر الألماني وحكمة الأوبانيشاد . فهاور نفسُهُ هو المسلوب الذي سلبته أعماق المعنى في الكلمات الأولى الكامن في جذر اللغات الجرمانية إلى حد لم يكن يعرفه قط من قبل . يجب ألا يُلام « هاور »، وهو العالم بالهنديّات، على هذا ولا الـ« الإدّا » أيضاً . إنها غلطة اللحظة الراهنة (كايروس (**كايروس Kairos**) التي اتضح لدى لبحث القريب أن اسمها هو « فوطان » . لذلك أنصح « حركة الإيمان الألماني » أن تبدد عنها ما يساورها من شكوك . لأن الأذكياء من الناس

. **Deutsche Gottschau: Grundzuge eines deutschhen Glaubens** *

لن يلتبس عليهم أمرهم فيحسبونهم عبّاد « فوطان » الأجلاف الذين ليس إيمانهم إلا ادعاء . في « حركة الإيمان الألماني » أناس بلغوا من الذكاء مبلغاً جَعَلَهُم **لا يؤمنون** بل يعلمون أن إله **الألمان** هو « فوطان » لا الإله المسيحي . إن هذه خبرة مأساوية وليست لعنة . لقد كان دائماً أمراً رهيباً أن يقع المرء في أيدي إله حي . لا يستثنى « يهوه » من هذه القاعدة، والفلسطينيون والأدوميون والعموريون وغيرهم، ممن كانوا خارج الخبرة اليَهْويّة، لا بد أنهم قد أَلِفُوْها خبرة مقيتة إلى أبعد حدود المقت . وقد ظلت الخبرة السامية* لـ « الله » مدة طويلة تشكل قضية أليمة جداً للعالم المسيحي بأسره . ونحن الذين نقف الآن في الخارج ننظر إلى الألمان من بعيد جداً كما لو أنهم مسؤولون، لكن ربما كان الأقرب إلى لحقيقة اعتبارهم **ضحايا** أيضاً .

لو رحنا نطبق وجهة نظرنا التي نسلم بأنها وجهة نظر غريبة، لوجدنا أنفسنا محمولين على القول بأن فوطان لا بد له وأن يكشف لنا في الوقت المناسب لا عن جانبه القلق العنيف العاصف في شخصه، وإنما عن صفاته الوجدية والنبوئية أيضاً التي تشكل الجانب المغاير من طبيعته . إن صح هذا الاستنتاج، فإن الاشتراكية القومية (= النازية) ليست هي الكلمة الأخيرة . لا بد وأن تكون هناك أشياء مختفية في القاع لا نستطيع أ، نتصورها في الوقت الحاضر، لكننا نتوقع أن تظهر في مجرى السنوات أو

---

* المؤلف يستعمل الكلمة للدلالة على الأقوام التي تندرج في المجموعة الناطقة باللغات السامية (لناشر الإنكليزي) .

العقود القليلة القادمة . إن استيقاظ « فوطان » لهو سَيْرٌ في الماضي : النهر الدافق الذي سُدَّ مجراه عاد يجري في قناته القديمة . والحاجز لن يدوم إلى الأبد، بل هو من قبيل « النكوص من أجل وثبة صحيحة »، والماء سوف يجري من فوق الحاجز . وعندئذٍ نعرف ما كان يقوله « فوطان » عندما كان يهمس في أذن « ميمير » :

سريعاً ينتقل أبناء « ميم »، والقدر
يسمع في الحان قرن « جلار »
عالياً ينفخ « هايمدال »، القرن عالياً،
يرتعد خوفاً كل الذين على طريق الجحيم .
إيغْدْرازيل يهتز ويرتعش في أعلى
الأضلاع القديمة، والعملاق طليق؛
« فوطان » يهمس في أذن « ميمر »
لكن نسيب « سورت » سوف يقتله في الحال .

ما مصير الآلهة ؟ ما مصير الجن ؟
كل « يوتنهايم » يئن، الآلهة في المجلس يتشاورون،
عالياً يزأر الأقزام عند الأبواب الحجرية،
أسياد الصخور : هل تريدون معرفة المزيد بعد هذا ؟
الآن يُعْوِل « غارم » بصوت عال أمام « غنيباهلّير »؛
الأغلال سوف تتحطم، والذئب يجري طليقاً؛
كثيراً أعرف، وأكثر أستطيع أن أرى،
عن مصير الآلهة، الأشداء في الوغى .

من الشرق يأتي « هْريم » بترسه المرفوع عالياً؛
في غضب العملاق يتلوّى الأفعوان؛
فوق الموج يتلوّى، والنسر الأسمر المائل إلى الصفرة
يلتهم جثثاً تصيح؛ « نغلفار » طليق .
في البحر من الشمال، يمخر العبابَ مركبٌ
مع أهل الجحيم، وعلى الدفة يقف « لوكي »؛
وراء الذئب يمشي أناس متوحشون،
ومعهم أخ « بلايست » يذهب .*

* فولوسبو Voluspo (الـ « إدّا » الشعرية) .

بعد الكارثـــة*

لأول مرة منذ عام ١٩٣٦ يحثني المصير الذي آلت إليه ألمانيا ثانية على تناول القلم . الشعر الذي نقلته عن « فولوسبو » وختمت به المقال الذي كتبْتُهُ يومئذ عن « فوطان » الذي يهمس في أذن « ميمير »، قد أشار بما يشبه النبوءة إلى طبيعة الأحداث الآتية، اكتملت الأسطورة، وغدا القسم الأعظم من أوروبا قاعاً صفصفاً .

قبل البدء بأعمال إعادة التعمير، هناك شيء كثير من التنظيم يجب القيام به، وهذا يستدعي التأمل قبل كل شيء . أسئلة تسأل من جميع الجهات عن معنى هذه المأساة كلها . يتّجه إليّ أناس يسألونني تفسيراً لما حدث، وكان عليّ أن أجيبهم على قدر ما باستطاعتي . لكن لما كانت الكلمة المنطوقة سرعان ما تكون سبباً في نشوء الأساطير، قررت ـــ ليس بدون تردد وشك كبيرين ـــ أن أسجل وجهات نظري مرة ثانية في صيغة مقال . أنا على علم تام بأن « ألمانيا » تشكل مشكلة كبيرة، وأن وجهات النظر الشخصية التي تصدر عن عالم نفس طبّي ربما لا تصيب غير مظاهر قليلة جداً من هذه الشبكة المعقدة من المسائل . يجب عليّ أن أكتفي بمساهمة متواضعة في عملية التنظيم، بدون أن أحاول التطلع بعيداً إلى حيث إعادة التعمير .

---

* كان أول نشر لهذا الموضوع في عام ١٩٤٥ .

وإني لأكتب هذا المقال إذ لاحظت مقدار ما ينفعل الإنسان في نفسه وصعوبة الوصول إلى شيء قريب من وجهة نظر هادئة نسبياً في وسط انفعالاته . لا شك أنه يجب أن نتحلى ببرودة الدم، وأن نترفع عن عواطفنا . لكننا، على الإجمال، متورّطون في الأحداث الأخيرة التي حدثت في ألمانيا إلى أبعد مما نحب أن نعترف به . ولا يمكننا أن نشعر بالعطف، لأن القلب ينطوي على مشاعر ذات طبيعة مختلفة جداً، وهذه يحلو لها أن تكون لها الكلمة الأولى . لكن لا يسع الطبيب ولا عالم النفس أن يكونا باردَيِ الدم — ناهيك عن أن هذا أمر مستحيل . إن صلتهما بالعالم تستغرقهما وتستغرق عواطفهما جميعاً، وإلا لم تكن لهما صلة تامة به . أما وإن الأمر كذلك، فقد وجدت نفسي أمام مهمة إدارة دفة سفينتي بين « سكيلاّ » و « كاربيس »؛ أسدّ أذني عن جانب واحد من وجودي وأشد وثاق الجانب الآخر إلى الصاري، كما هو المعتاد في مثل هذه الرحلة . يجب أن أعترف أنه ما من مقال سبب لي مثل هذا القلق، كما سبب لي هذا المقال، من وجهة النظر الأخلاقية والإنسانية . لم أكن أدري أنني متأثر إلى هذا الحد . لذلك أثق بأن هناك أناساً آخرين يشاركونني هذا التأثر . وقد كانت هذه الوحدة الداخلية، أو المشاركة الصوفية، مع الأحداث التي جرت في ألمانيا حافزاً جديداً لي على اختبار مدى سعة المفهوم السيكولوجي الذي ينطوي عليه الذنب الجماعي collective guilt . لذلك عندما أتناول هذه المشكلة فلا أتناولها ولديّ شعور بارد بالتفوق، بل شعور ظاهر بالنقص .

على أن الاستخدام السيكولوجي لكلمة « ذنب » يجب ألا تلتبس

علينا بمعناها القانوني أو الأخلاقي . فمن الناحية السيكولوجية، تعني الكلمة حضوراً غير عقلاني لشعور شخصي بذنب، أو اتهام موضوعي بذنب، أو شعور المرء بأن له قسطاً فيه . وكمثال على الحالة الأخيرة، نفترض إنساناً ينتمي إلى عائلة شاء لها سوء حظها أن تحس الخزي بسبب جريمة ارتكبها أحد أعضائها . من الواضح أن هذه العائلة لا يمكن اعتبارها مسؤولة قانونياً أو أخلاقياً . لكنها تظل مع ذلك تشعر بأن جو الذنب يكتنفها بطرائق متعددة . لقد تلطخ اسم هذه العائلة، وصار الفرد منها يحس أن هذا الاسم يسبب له صدمة كلما سمع ألسنة الغرباء تلوكُهُ وتستهجنه . قد يقتصر الذنب على المذنب وحده من وجهة النظر القانونية والأخلاقية والعقلية، لكنه كظاهرة نفسية يشيع في كل الجوار . البيت أو العائلة أو حتى القرية التي يُقتَرف فيها جريمة قتْل مثلاً ملزمة بأن تشعر بالذنب السيكولوجي، والعالم الخارجي يجبرها على الشعور به . هل يسع امرءاً أن ينزل مكاناً يعلم أن شخصاً قُتل فيه قبل بضعة أيام ؟ أم هل يكون باعثاً له على سرور أن يتزوج من أخت القاتل أو من ابنته ؟ أي أب هذا الذي لا يحس جرحاً عميقاً إذا ما زُجَّ بابنٍ له في السجن، أو لا يشعر بأن كبرياءه العائلي قد أهين إذا ابن عم له يحمل نفس الاسم قد جلب على بيته العار ؟ ألا يشعر كل سويسري محترم بالخجل ـــ بتلطيف العبارة ـــ لو أن الحكومة السويسرية أقامت في بلادنا مسلخاً بشرياً على غرر مسلخ « مايدينك » ؟ هل نستغرب بعد هذا إذا سمعنا، ونحن في رحلة إلى الخارج ومعنا جوازات سفر سويسرية، مثل هذه الملاحظات على الحدود : « هؤلاء الخنازير السويسريون ! » ؟ ثم، ألا نشعر جميعاً بقليل

من الخجل ــ بالضبط لأننا وطنيون ــ حين تتجب سويسرا مثل هذا العدد الكبير من الخونة ؟

نحن السويسريين إذ نعيش في وسط أوروبا نشعر بارتياح لأننا بعيدون عن الأبخرة الفاسدة التي تتصاعد من مستنقع الذنب الألماني . لكن كل هذا يتغير في اللحظة التي ننتقل فيها، بوصفنا أوروبيين، إلى قارة أخرى أو نتصل فيها بأناس من الشرق . ماذا نقول لهندي يسألنا : « أنتم متلهِّفون لكي تجلبوا لنا ثقافتكم المسيحية، أليس كذلك ؟ هل لي أن أسأل إن كان « آوشفيتز »* و « بوشنفالد »* هل ينقذنا من الجرح لو سارعنا إلى القول أن هذه الأشياء لم تحدث في حيث نقيم، بل في مكان يبعد عنا مئات من الأميال إلى الشرق من سويسرا ــ ليس في ببلادنا بل في بلاد مجاورة ؟ تُرى ماذا عسى أن يكون موقفنا لو أن هندياً قال لنا مستنكراً إن اللطخة السوداء في الهند لا تقع في ترابنكور بل في حيدر أباد ؟ أما كنا نقول له : « أوه، حسن، الهند هي الهند ! » . كذلك إن النظرة في جميع أنحاء الشرق هي « أوه، حسن، أوروبا هي أوروبا ! » . في اللحظة التي نجتاز فيها، نحن الأوروبيين الذين نزعم أننا أبرياء، حدود القارة الأوروبية، نشعر بشيء من الذنب الجماعي يُنيخ فوق ضميرنا بثقله على الرغم من أنه ضمير غير ملوث بذنب ارتكبه . (ولعل أحدنا يتساءل أيضاً : هل إن روسيا بلغت من البدائية مبلغاً لاتزال تشعر معه بما اقترفناه من « ذنب

---

* لعلهما اسمان لمعسكري اعتقال أقامهما النازيون في أثناء الحرب العالمية الثانية
ــ المترجم ــ

بالعدوى » ــ كما يمكن أن يسمى الذنب الجماعي أيضاً ــ ولهذا السبب تتهمنا بالفاشية ؟) . العالم يرى أوروبا باعتبارها القارة التي أقيمت على ترابها معسكرات الاعتقال المخجلة، تماماً مثلما تميز أوروبا نفسها من ألمانيا باعتبار أن هذه هي البلاد والشعب اللذان تخيم عليهما غيوم الذنب . فالهول قد حدث في ألمانيا، والمرتكبون كانوا من الألمان . ما من ألماني يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة بأكثر مما يستطيع أوروبي أو مسيحي أن ينكر أن أشد الجرائم ترويعاً في جميع العصور هي الجرائم التي ارتكبت في بيته . يتعين على الكنيسة المسيحية أن تضع رماداً على رأسها وأن تمزق أرديتها بسبب ما اقترفه أبناؤها من الذنب . فقد وقع عليها ظل ذنبهم بمقدار ما وقع على أوروبا، أم الهُوْلات . ويتعين على أوروبا أن تقدم عن نفسها حساباً أمام العالم، تماماً كما يتعين على ألمانيا أن تقدم عن نفسها حساباً أمام أوروبا . لم يعد الآن بوسع الأوروبي أن يقنع الهندي بأن ألمانيا لا تعنيه، أو أنه لا يعلم شيئاً عن هذه البلاد، بأكثر مما يستطيع الألماني أن يتنصل من الذنب الجماعي بحجة أنه لم يكن يدري . بذلك يضاعف ذنبه الجماعي بخطيئة انعدام الوعي .

الذنب الجماعي السيكولوجي قدر مأساوي يصيب كل شخص، الصالح والطالح على السواء ــ يصيب كل شخص كان في مكان ما بالقرب من المكان الذي حدث فيه الشيء الرهيب . طبعاً، ما من شخص ذي عقل وصاحب وجدان حيّ يرضيه أن يحوّل الذنب الجماعي إلى ذنب فردي . لأنه يعلم تماماً كيف يفرّق بين المذنب الجماعي والمذنب الفردي . لكن كم من الناس من هم ذوو عقل وأصحاب

وجدان، وكم من الناس من يكلف نفسه عناء أن يصبح كذلك ؟ أنا لست متفائلاً من هذه الناحية . لذلك، على الرغم من أن الذنب الجماعي، منظوراً إليه على المستوى القديم والبدائي، هو حالة من **قلة النظافة السحرية**، إلا أنه بسبب هذه اللامعقولية العامة يصبح واقعة حقيقية جداً لا يستطيع أوروبي خارج أوروبا، ولا ألماني خارج ألمانيا، أن يُسقطها من حسابه . لو أراد ألماني أن يقيم علاقات طيبة مع أوروبا لوجب عليه أن يعلم أنه إنسان مذنب في نظر الأوروبيين . فهو، كألماني، قد خان الحضارة الأوروبية وقيمها جميعاً، وجلب العار واللعنة على أسرته الأوروبية، حتى ليتعين على المرء أن يحمر خجلاً إذا سمع الناس يدعونه أوروبياً؛ لقد انقضّ كالوحش المفترس على إخوانه الأوروبيين يسومهم عذاباً وقتلاً . ولعل الألماني لا يستطيع أن يتوقع من سائر الأوروبيين أن يتساءلوا عند كل خطوة إن كان اسم المجرم مولر أو ماير، أو يتوقع أن يعامله الناس كما يعاملون « جنتلماناً » إلى أن يثبت العكس، لسوء الحظ، لقد ثبت بمنتهى الوضوح طوال اثنتي عشرة سنة أن الألماني لم يكن « جنتلماناً » .

لو كان الألماني مستعداً للاعتراف أمام العالم أجمع بأن قصوره الأخلاقي هو ذنب جماعي، بدون أن يحاول التقليل من شأنه أو تبريره بحجج واهية، إذن لوجد نفسه بعد لأْيٍ أمام فرصة معقولة لكي يعتبره الناس إنساناً محترماً نوعاً من الاحترام، وبذلك يكون في حِلٍّ من ذنبه الجماعي .

قد يعترض بعضهم بالقول أن مفهوم الذنب الجماعي السيكولوجي

كله عبارة عن انحياز وإدانة غير منصفة كلياً . طبعاً، وإنه لكذلك . لكن هذا بالضبط هو ما يكوّن الطبيعة غير العقلانية للذنب الجماعي : لا يعبأ بالأخيـار والأشرار، إنه الغمامة السوداء التي تطلع من مسرح جريمة لم يكفَّر عنها . إنه ظاهرة نفسية، ولذلك نحن لا ندين الشعب الألماني إذا قلنا أنه مذنب جماعياً، لأن قولنا هذا هو مجرد إعلان حقيقة . ومع ذلك لو تعمّقنا سيكولوجية هذه الظاهرة، لتبين لنا أن لمشكلة الذنب الجماعي جانبـاً آخر هو أدعى إلى البحث عن ذلك الجانب الذي لا يمثـل غير دينونة جماعية .

بما أن كل إنسان لا يعيش في دائرته النفسية الخاصة كما يعيش الحلزون في قوقعته، معزولاً عن كل شخص آخر، بل مرتبط مع الناس الآخرين في إنسانيته غير الشعورية، لا يمكن أن تكون الجريمة، مهما بدت لواعيتنا، حادثاً نفسياً منعزلاً، بل هي دائماً تحدث على نطاق واسع . فالمشاعر التي تثيرها الجريمة، والحماسة إلى تعقّب المجرم، واللهفة التي نتتبع بها إجراءات المحكمة ـــ كل هذا للدلالة على الأثر المهيِّج الذي تتركه الجريمة على كل من ليس بارد العواطف أو فاتر المشـــاعر من شذوذ فيه . كل شخص يشـــترك في جريمة* ويشعر بها تسري في كيانه، يحاول أن يفهمها وأن يفسرها . شيء يلتهب بنار الشر العظمى التي تضطرم في الجريمة . أما كان أفـلاطون يعـلم أن رؤية القبح تستثـير شيئـاً قبيحـاً في النفس ؟ نهبُّ ساخطين، وفي غضب نستصرخ « العدالة » أن تلحق بالقاتل، ونكون

* المراد من « الاشتراك » هنا رؤية الجريمة أو سماع خبرها ـــ المترجم ـــ

أعلى صوتاً، وأشد اتقاداً عاطفياً، وأحْفَلَ بالكراهية، كلما اضطرمت نار الشر التي اشتعلت في نفوسنا بشراسة أكبر . نحن بإزاء حقيقة لا يمكن نكرانها : خبث الآخرين يصبح خبثاً فينا لأنه يوقد شيئاً خبيثاً في قلوبنا القتل قد مارسه كل شخص، وكل شخص اقترفه . وقد جعلنا كلنا جريمة القتل النفسية أمراً ممكناً، إذا وقعنا تحت إغراء فتنة الشر التي لا تقاوم؛ وكلما اقتربنا منها واستطعنا أن نراها بوضوح أكبر، كان ذنبنا أكبر . لذلك لا مناص لنا من الانسياق وراء قذارة الشر، على الرغم من الموقف الذي تتخذه واعيتنا . لا أحد يستطيع أن يتفادى ذلك، لأننا جميعاً جزء من الجماعة البشرية حتى أن كل جريمة تُرْضي ميلاً خفياً في زاوية من زوايا القلب البشري المتقلب . صحيح أن هذا الرجع قد يستثير مشاعر مضادة في طابق مجاور من العقل لدى أشخاص ذوي استعداد أخلاقي قوي . لكن الاستعداد الأخلاقي القوي نادر بالمقارنة، حتى إذا تصاعدت الجرائم انتصب السخط إلى أعلى من اللازم، وعندئذٍ يندرج الشر على جدول الأعمال اليومية؛ كل شخص ينطوي على « مجرمه الإحصائي » مثلما ينطوي على مجنونه أو قدّيسه الخاص به . بسبب هذه الخاصية الأساسية في تكويننا البشري، وُجد في كل مكان ما يطابقها من استعداد لتقبل الإيحاء أو العدوى . إن عصرنا على الخصوص ـــ نصف القرن الماضي ـــ هو العصر الذي مهّد السبيل للجريمة . ألم يخطر لأحد، على سبيل المثال، أن رواج تمثيلية مثيرة له جانبه المشكوك فيه أيضاً ؟

قبل زمن طويل من عام ١٩٣٣، كان في الهواء رائحة حريق، وكان الناس متلهفين إلى اكتشاف المكان الذي تنبعث منه النار، وإلى ملاحقة

مرتكب جريمة الحريق . وعندما شوهدت سحب كثيفة من الدخان تتجمع فوق سماء ألمانيا، وأعطى حريق الرايخشتاغ الإشارة، لم يكن ثمة خطأ في المكان الذي كان يقيم فيه مرتكب جريمة الحريق؛ لقد تعيّن بشخصه . لكن هذا الاكتشاف، على ما يثيره من روع، قد جاء مع الوقت بشعور ارتياح . لقد بتنا الآن نعرف واثقين مكان وجود كل هذا الفساد، بينما نحن متحصنون وراء استحكاماتنا في المعسكر المضاد، بين الناس المحترمين الذين يوثق بغيرتهم الأخلاقية أن ترتفع إلى أعلى فأعلى مع كل علامة جديدة على ذنب نكتشفه في الجانب الآخر . حتى الدعوة إلى تنفيذ أحكام الإعدام الجماعية لم تعد تؤذي آذان الأتقياء، وإشباع المدن الألمانية قصفاً بالقنابل صار يُنظر إليه على أنه حكم إلهي . كانت الكراهية قد وجدت لها دوافع محترمة، ولم تعد مزاجاً شخصياً منغمساً في السر . ويظل الجمهور المحترم وليس عنده أدنى فكرة عن مدى قربه من الشر .

يجب ألا نتصور لحظة أن أحداً يمكنه أن يتفادى التورط في لعبة الأضداد هذه . حتى القدّيس يتعيّن عليه أن يصلّي بلا انقطاع على أرواح هتلر وهملر والغستابو وفرق « الإس إس » لكي يصلح بلا تأخير الضرر الذي لحق بروحه . إن رؤية الشر تلهب في النفس شراً ـــ لا مناص من هذه الحقيقة . ليس الضحية هو المُعاني الوحيد؛ كل شخص قريب من الجريمة، بما في ذلك القاتل، إنما يعاني مع الضحية . لقد بات شيء من الظلام السحيق في العالم يخيّم علينا، ويسمّم الهواء الذي نتنفّسه، ويعكر الماء الصافي بطعم الدم الآسن الذي يثير الغثيان . صحيح أننا أبرياء وأننا

ضحايا مستلَبون مخدوعون معتدى علينا؛ ومع ذلك فمن أجل كل هذا، بل بسببه، تحدّق شعلة الشر في سخطنا الأخلاقي . يجب أن يكون الأمر هكذا، إذ من الضروري أن يشعر المرء بالسخط، وأن يبيح لنفسه أن يكون سيف الحكم الذي يمتشقه القدر . فالشر يقتضي كفّارة، وإلا دمّر الأشرار العالم كله، أو اختنق الأبرار في غضبهم الذي لا يسعهم تهدئته، ولن يأتي خير من أي منهما .

عندما يقتحم الشر نقطة من نظام الأشياء تنقطع حلقة الوقاية النفسية . كل فعل فإنما يستدعي رجعاً عليه، وفي موضوع التخريب يتبين لنا أن في هذا الرجع من الشر مثل ما في الجريمة منه، بل وربما أسوأ، لأن الشر يجب القضاء عليه أصلاً وفرعاً . لكي نتفادى العدوى الناجمة عن لمسة الشر نحتاج إلى « طقس خروج » مناسب، إلى تسليم رزين بالذنب عَبْر قاضٍ وجلاّد وجمهور، يعقبه أداء كفّارة .

الأشياء الرهيبة التي حدثت في ألمانيا، والسقوط الأخلاقي الذي سقطته « أمة من ثمانين مليوناً »، ضربة موجهة إلى جميع الأوروبيين . (كان من عادتنا أن نحيل مثل هذه الأشياء على « آسيا ») . أن يسقط عضو واحد من أعضاء الأسرة الأوروبية إلى مستوى نصب معسكرات اعتقال يُلقي ضوءاً مريباً على الآخرين جميعاً . من نحن حتى نتصور أن هذا الشيء « لا يمكن أن يحدث هنا » ؟ ما علينا إلا أن نضاعف عدد سكان سويسرا عشرين مرة حتى نصبح أمة من ثمانين مليوناً، وعندئذٍ يُقَسَّم ذكاؤنا وأخلاقنا على عشرين نتيجة للتخريب الأخلاقي والآثار النفسية التي تترتب على العيش المشترك في جموع بشرية هائلة . مثل هذه

الحركة من الأشياء تمهّد لنا الأساس لارتكاب الجريمة الجماعية، وعندئذٍ يكون عدم ارتكابها نوعاً من المعجزة . هل نعتقد جادين أننا سوف نكون عندئذٍ في مأمن ؟ نحن، الذين عندنا هذا العدد الضخم من الخونة والمرضى النفسيين . لقد ملأنا رعباً أن ندرك كل ما يستطيع الإنسان فعلَه، وبالتالي ما نستطيع فعله نحن أيضاً . منذ ذلك الحين والشك الرهيب في البشرية وفي أنفسنا يأكل في قلوبنا .

ومع ذلك، يجب أن يكون واضحاً لكل شيء أن مثل هذه الحالة من الانحطاط لا تحدث إلا إذا توفرت لها شروط معينة . أهم هذه الشروط تراكم الجماعات البلدانية المصنَّعة ـــ أناس انفصلوا عن الأرض، انخرطوا في خدمة أحادية، ويفتقرون إلى كل فطرة سليمة، حتى فطرة حفظ الذات، وفقدان فطرة حفظ الذات يقاس بمقياس الاعتماد على الدولة، الذي هو من الأعراض السيئة . فالاعتماد على الدولة معناه أن كل شخص يعتمد على كل شخص آخر (= الدولة)، بدلاً من أن يعتمد على نفسه . كل إنسان يتعلق بالذي يليه وينعم بشعور أمان زائف؛ ذلك أن المرء يظل معلقاً في الهواء حتى حين يكون معلقاً وسط عشرة آلاف شخص آخر . الفرق الوحيد هو أن المرء لا يعود مُدْركاً لحالة انعدام الأمن التي ينغمس فيها . إن زيادة الاعتماد على الدولة قد يكون كل شيء إلا عَرَضاً على عافية؛ إنه يعني أن الأمة بأسرها هي في طريقها إلى أن تصبح قطيعاً من الغنم، معتمدة دائماً على راعٍ يسوقها إلى المراعي الخصيبة . لكن عصا الراعي سرعان ما تصبح قضيباً من حديد، والرعاة سرعان ما ينقلبون إلى ذئاب . أي منظر يبعث على الأسى أكثر من رؤية ألمانيا كلها تتنفس

الصعداء عندما أعلن لها مجنون بداء العظمة : « أنا أتسلم المسؤولية ! » .
كل إنسان لم يزل مفطوراً على حفظ الذات يعلم تمام العلم أن ما من أحد غير خدّاع أو غشّاش يعرض عليه أن يخلّصه من المسؤولية عن وجود شخص آخر . الإنسان الذي يعد بكل شيء هو الإنسان الذي لا يفي بشيء . وكل من يفرط في بذل الوعود عرضة لاستخدام وسائل شريرة من أجل تنفيذ وعوده، وهو يقيناً يسير على طريق الهلاك . لا شك أن النمو الدائم لرفاه الدولة شيء جميل جداً من وجهة نظر واحدة، لكنه بركة مشكوك فيها من وجهة نظر أخرى؛ تسلب الناس مسؤوليتهم الفردية وتحيلهم أطفالاً وأبعاماً . زد على ذلك خطر لجوء غير المسؤول إلى استغلال صاحب المقدرة والكفاءة، كما حدث ذلك على نطاق واسع في ألمانيا . يجب على المواطن أن يحافظ على غريزة حفظ البقاء مهما كلفه الثمن، لأنه في اللحظة التي ينفصل فيها الإنسان عن جذور الغريزة التي تمدّه بأسباب الغذاء، في نفس هذه اللحظة يصبح المكّوك لكل ريح تهب . عندئذ لا يكون خيراً من حيوان مريض فاسد ومنحل، وليس يردّ إليه عافيته شيء أقل من الكارثة .

أعترف أنني بقولي كل هذا أشعر بأنني أُشْبَهُ بذلك النبي الذي رفع صوته، على حد رؤية يوسفوس، في رثاء المدينة حين ضرب الرومان حصارهم على أورشليم . لم ينفع المدينة في شيء وكان أن انطلق حجر من قاذوف روماني أتى على حياة النبي .

بكل ما في العالم من حسن نيّة لا نستطيع أن نشيّد فردوساً على الأرض . وحتى لو استطعنا ذلك، لا يكاد يمضي قليل من الوقت حتى

يدب فينا الانحطاط وينال منا الضمور بكل طريقة . وقد نتلذّذ بتدمير فردوسنا، وعندئذٍ يروعنا الذي فعلناه بأيدينا، في مثل نفس الحمق . زد على ذلك أنه لو اتفق أن كنا « أمة من ثمانين مليوناً »، إذن لقتنعنا بأن « الآخرين » هم الملومون، ولبلغت ثقتنا بأنفسنا من الانحسار مبلغاً لا يُتيح لنا أن نفكر حتى في تحمّل المسؤولية و اللوم على شيء .

إنه شرط مَرَضيّ، مجرد من الأخلاق، شاذّ عقلياً أن يفعل جانب منا أشياء يفضل الجانب الآخر (الذي نزعم أنه محترم) أن يتجاهلها . هذا الجانب هو في حالة دفاع دائمة ضد التهم الحقيقية والمفترضة . في الحقيقة، ليس المتَّهم الرئيسي في الخارج، إنه القاضي الذي يقيم في قلوبنا . وبما أن هذه محاولة من الطبيعة للإتيان بالشفاء، فإن من الحكمة ألا نلحّ طويلاً على تمريغ أنوف الألمان في رجاساتهم، لئلا نغرق صوت الاتهام في قلوبهم — ثم في قلوبنا وقلوب حلفائنا أيضاً . ليت الناس يدركون مبلغ الغنى الذي يجلبه اكتشاف الإنسان لذنبه، ومبلغ الشعور بالشرف والكرامة . لكن ليس يبدو أن هذا التبصّر موجود في أي مكان . بدلاً من ذلك، لا نسمع غير محاولات لإلقاء اللوم على الآخرين — « لا أحد يُسلّم أنه كان نازياً » . لم يكن الألمان أبداً غير مبالين بالمرّة بالأثر الذي خلفوه في العالم الخارجي . يمقتون كل من يخالفهم بل كل من ينتقدهم . إن الشعور بالنقص يجعل المرء سيّء الخلق ويؤدي به إلى بذل جهود تعويضيّة ابتغاء نيل الإعجاب . نتيجة لذلك، يتقدم الألماني الصفوف ويسعى إلى نيل الحظوة، أو يبرهن على « فاعليته الألمانية » بنوع من الثقة بالنفس تؤدي إلى حكم إرهابي أو إلى قتل الرهائن رمياً بالرصاص .

وعندئذٍ لا يعود الألماني يعتبر هذه الأشياء من قبيل القتل، لأنه غارق في اعتبارات هيبته . عادةً ــ إن شعور النقص علامة على نقص الشعور ــ ليس لعباً بالكلمات كما يبدو . جميع الإنجازات العقلية والتقانية في العالم لاتستطيع أن تعوّض النقص في مسألة الشعور . النظرية العرقية المزيفة علمياً التي كان النازيون يتلهوّن بها لم تجعل من القضاء على اليهود أمراً مقبولاً، ولا تزييف التاريخ جعل من السياسة الخاطئة أمراً موثوقاً به .

يذكرنا هذا المشهد بالشخص الذي دعاه نيتشيه بجدارة « المجرم الشاحب » **Pale criminal**، **الذي يبدي في الحقيقة عن جميع علامات الهستيريا . فهو لا يقبل، ولا يستطيع أن يقبل، أنه هو ما هو كائن؛ لا يستطيع أن يتحمل ذنبه، تماماً مثلما لم يستطع أن يتفادى الوقوع فيه . ينحني أمام كل نوع من أنواع الخداع الذاتي إن كان ذلك يعينه على الهرب من رؤية نفسه . صحيح أن هذا** يحدث في كل مكان، لكنه لا يبدو خصيصة قومية كما بدا في ألمانيا . أنا لست أول من استوقفه شعور النقص لدى الألمان . ماذا كان على غوتيه وهاينة ونيتشيه أن يقولوا عن أبناء جلدتهم ؟ إن الشعور بالنقص لا يعني أبداً أنه ليس له ما يسوّغه . كل ما في الأمر أن النقص لا يشير إلى ذلك الجانب من الشخصية، أو الوظيفة، التي يظهر فيها النقص ظهوراً جليّاً، بل إلى نقص موجود فعلاً مع ذلك حتى ولو كان شبهة خفيفة . هذه الحالة يُسْران ما تؤدي إلى فصام هستيري في الشخصية، وهو فصام يتألف جوهرياً من كون إحدى اليدين لا تعرف ما تفعله الأخرى، ومن الحاجة إلى أن يقفز المرء فوق ظله، ومن البحث عن كل شيء مظلم ناقص

حقيق بالملامة في الآخرين . لهذا يشكو مريض الهستيريا دائماً من كونه محاطاً بـأناس عاجزين عن تقديره حق قدره، يحدوهم إلى ذلك دوافع دنيئة، وباذرين بذور شقاق حقيرين؛ هم رهْطٌ من السِّفْلة يجب القضاء عليهم قضـاءً مبرماً لكي يتاح للعِلْية (السوبرمان) أن يبلغوا مستواهم الرفيع من الكمال . أن ينحو فكر المهستر وشعوره هذا المنحى لدليل واضح على نقص فيه . لذلك يُضطر جميع المهسترين إلى تعذيب الآخرين، لأنهم لا يريدون الإساءة إلى أنفسهم بالتسليم بنقصهم . لكن بما أنه لا أحد يستطيع الخروج من جلده والتخلص من نفسه، نجدهم يقفون في طريق أنفسهم في كل مكان كما لو أنهم هم أنفسهم أرواحهم الشريرة — وهذا ما نسميه العصاب الهستيري .

جميع هذه الأعراض المرضية — افتقار تام من المريض إلى التبصر في نفسه، إعجاب بالذات يصل إلى حد العشق يصاحبه التماس الذرائع والمبررات لنفسه، تنديد من المريض برهطه وإرهابهم (لطالما تكلم هتلر باحتقار عن شعبه !)، إسقاط الظل، الكذب، تزييف الحقائق، التصميم على نيل الإعجاب بوسائل صحيحة أو فاسدة، الخداع والغش — كل هذه الأعراض تجمعت في رجل كان تشخيصه سريرياً أنه مهستر، اختاره قدر غريب لكي يكون الناطق السياسي والديني والأخلاقي بلسان ألمانيا طوال اثنتي عشرة سنة . هل هذا مصادفة بحتة ؟

ولعل التشخيص الدقيق لحالة هتلر أنه مصاب بـ « سيودولوجيا فانتاستيكا »، وهي ذلك النوع من الهستيريا الذي يتميز بموهبة غريبة تجعل صاحبها يصدق أكاذيبه هو . مثل هؤلاء الناس يصادفون نجاحاً

باهراً، لفترة قصيرة، ولهذا السبب يكونون خطرين اجتماعياً . لا شيء أكثر إقناعاً من الكذبة التي يخترعها إنسان ثم يصدق نفسه، أو الفعل أو القصد الشرير اللذين يعتبر المرء صحتهما أمراً بيّناً بذاته . على كل حال، يقتنع به الناس أكثر مما يقتنعون بالإنسان الصالح أو الفعل الصالح، أو حتى أكثر من الرجل الطـالح وفعله الطالح صرفاً . كانت حركات هتلر المسرحية، التي كان واضحاً أنها هستيرية أيضاً، تستوقف كل الأجانب (مع بضعة استثناءات مذهلة) باعتبارها مُثار ضحك ليس إلا . عندما رأيته بأم عيني أوحى لي أنه فزّاعة نفسية (له عصا مكنسة يبسط عليها ذراعيه) أكثر مما أوحى لي أنه كائن بشري . كذلك إن من الصعب أن نفهـم كيف أحدثت خطبـه الصـاخبة، التي كان يلقيها بنبرات حادة مزعجة نسوانية، مثل هذا التأثير . لكن الشعب الألماني ما كان ليقع تحت تـأثير هذا الشخص ويُسْتَـلَبَ إلى هذا الحد لو لم يكن هذا الشخص يعكس صورة عن الهستيريا الألمانية الجماعية . إننا لا نستطيع، بدون أن تكتنفنـا الشكوك الخطيرة، أن نغامر فَنسمَ أمةً برمّتها بِسِمَةِ « النقص السيكوباثي »، ومع ذلك فإن هذا هو التفسـير الوحيد الذي يمكن أن يكون مسؤولاً عن التأثير الذي أحدثه هذا الفزّاعة على الكتل البشرية . نقص في التعليم مؤسف، وغرور يصل إلى حد الجنون، وذكاء متوسط جداً يصحبه حذق مهستر وقدرة مراهق على التخيلات ـــ كل هذا كان **مكتوباً على وجه هذا الدهْمـائي demagogue . جميع حركاته وضعهـا** وصممها عقل هستيري ليس في نيّته شيء آخر سوى نيْل الإعجاب . ســلوكه أمام الناس، مثل سـلوكه في حياته الخاصـة، أشبه بـ « الرجل

الحديدي » الشيطاني الكئيب المعروف في الخيال الشعبي، المثل الأعلى عند عامة الأطفال الذين يستمدون معرفتهم عن العالم من الأبطال المؤلّهين الذين نشاهدهم في الأفلام المبتذلة . هذه الملاحظات الشخصية قادتني في ذلك الوقت (١٩٣٧) إلى نتيجة مفادها أن الكارثة النهائية، عندما تقع، سوف تكون أكبر وأدمى مما كنت تصورت من قبل . ذلك أن هذا المهستر المسرحي والدجال المكشوف لم يكن يختال في مشيته فوق خشبة مسرح صغير، بل كان يمتطي ظهر الفرق المدرعة، بكل وزن الصناعة الألمانية الثقيلة خلفه . بدون أن يلقى غير معارضة خفيفة في الداخل، وفي كل الأحوال غير فاعلة، لقد حشَرَ أمة ثمانين المليون في « سيرك » لكي تكون شاهدة على دمار نفسها .

من أقرب المقرّبين إلى هتلر يقف غوبلز وغورنغ كأشخاص بارزين . يمثل غورنغ الفتى الطيب، والنموذج الحي للمخادع الذي يستولي على بسطاء العقول بهيئته المرحة التي تبعث على الاحترام . أما غوبلز، وهو لايقل شؤماً عن غورنغ، فهو مثال أديب المقاهي والغشّاشين في اللعب، المعوَّق الذي وسمته الطبيعة بميسم عار في نفس الوقت . كل واحد من أقانيم هذا الثالوث غير المقدس يكفي لكي يجعل كل من لم يكن محصَّن الغرائز أن يصلّب ثلاث مرات . لكن ما الذي حدث فعلاً ؟ رُفع هتلر إلى السموات؛ كان ثمة لاهوتيون ينظرون إليه باعتباره مخلّصاً . وكان غورنغ محبوباً شعبياً بسبب مواطن ضعفه، وكان قليل من الناس يصدقون جرائمه . وكان الناس يتسامحون مع غوبلز لأن كثيراً منهم كانوا يرون الكذب لا ينفصل عن النجاح، من حيث أن النجاح يبرّر كل شيء .

كان اجتماع هؤلاء الثلاثة في وقت واحد كافياً للكيل أن يطفح؛ ولعلنا لا نستطيع التصور كيف تأتّى لشيء رهيب كهذا أن يصل إلى السلطة . لكن يجب ألا ننسى أننا نصدر حكمنا انطلاقاً من يومنا هذا، أي من معرفتنا بالأحداث التي أدّت إلى الكارثة . لاشك بأن حكمنا كان خليقاً بأن يكون مختلفاً جداً لو كانت معلوماتنا متوقفة عند عام١٩٣٣و١٩٣٤. في ذلك الوقت، لم تكن الأشياء التي كانت تبدو لصالح النظام قليلة، إنْ في ألمانيا أو في إيطاليا . فقد كان ثمة دليل لا ينكر بهذا الخصوص، ألا وهو اختفاء العاطلين عن العمل الذين كانوا يتسكعون في الشوارع بمئات الآلاف . فبعد الركود والفساد اللذين أعقبا سنوات الحرب ، كان الهواء الجديد الذي هبّ على ألمانيا وإيطاليا علامة تغري المرء بأن يؤمّل منه خيراً . في هذه الأثناء ، كانت أوروبا كلها تتفرج على هذا المشهد مثلما كان يفعل المستر تشمبرلن*

الذي كان مستعداً لتحمّل زخ شديد . لكن هذا التناهي في الخداع هو الصفة المميزة التي يتصف بها المصابون بالـ « سيودولوجيا فانتاستيكا »، وقد كان عند موسوليني مسٌ منها (لكنها ظلت في نطاق محدود ماظلّ أخوه أرنالدو حياً) . صاحب هذا المسّ يعرض خططه بأكثر الطرائق براعة، متوسلاً إلى ذلك بأنسب الكلمات وأوضح الحجج، وليس يبدو عليه شيء يدل على أن نيّاته سيئة منذ البداية . لا بل قد تكون نياته حسنة، وحسنة بصفة أصيلة . فيما يتعلق بموسوليني، قد يكون من

* رئيس وزراء بريطانيا قبيل الحرب العالمية الثانية ــ المترجم .

الصعب رسم خط محدد بين الأسود والأبيض . عندما تكون الـ « سيودولوجيا » تفعل فعلها، يتعذر علينا التأكد من أن نية الخداع هي الدافع الرئيسي . غالباً ما تلعب « الخطة الكبرى » الدور الرئيسي، وما هو إلا أن يصل الأمر إلى المسألة الدقيقة المتعلقة بتحقيق هذه الخطة حتى تُغتَنَم كل فرصة، وتصلُح كل وسيلة على مبدأ « الغاية تبرر الواسطة » . بعبارة أخرى، لا تبلغ الأشياء مبلغ الخطر إلا إذا أخذ جمهور واسع كذاباً باثولوجيّاً على مأخذ الجد . فيصبح مثل فاوست الذي التزم بعقد ميثاق مع الشيطان، فينزلق عن الصراط المستقيم . وربما كان هذا ما حدث لهتلر تقريباً — ألا فلْنمنحْهُ فائدة الشك ! لكن الفضائح التي اشتمل عليها كتابه*، الذي ما إن يجرّد من سمة الفخفخة البوهيمية، حتى يحمل المرء على الارتياب، وإن المرء لا يسعه أن يتفادى التفاؤل، إن كان الروح الشرير لم يستولِ على هذا الرجل قبل زمن طويل من استيلائه على السلطة . في حوالى ١٩٣٦ كان كثير من الألمان يسألون أنفسهم نفس السؤال؛ لقد أعربوا عن مخاوفهم من أن يقع الفوهرر ضحية « تأثيرات شريرة »، لاستغراقه في ممارسة « السحر الأسود »، ...الخ . واضح أن هذه الشكوك جاءت متأخرة؛ لكن على الرغم من هذا، فقد يكون عند هتلر في البداية نيّات طيبة ولم يخضع إلى استخدام الوسائل الخاطئة، أو إلى إساءة استخدام وسائله، إلا في مجرى تطوره الشخصي .

لكن بودّي، قبل كل شيء، أن أشدد على أن الوضوح يشكل جزءاً لا

---

* كتاب كفاحي لأدولف هتلر — المترجم —

يتجزأ من تكوين الكذاب الباثولوجي . لذلك ليس من السهل، حتى على أصحاب الخبرة، تكوين رأي عنه، خصوصاً عندما تكون اللحظة لاتزال ظاهرياً في المرحلة المثالية . وعندئذ يستحيل علينا استشراف كيف يمكن أن تتطور الأشياء . ويبدو أن موقف المستر تشمبرلن، القائم على مبدأ « إعطائه فرصة »، هو السياسة الوحيدة . كانت الغالبية العظمى من الألمان في الظلمة، شأنهم في هذا كشأن الناس في الخارج، وكان من الطبيعي أن يقعوا فريسة لخطب هتلر المُدَوْزَنَة في حِذْق على الذوق الألماني (وليس الألماني وحده) .

على الرغم من قدرتنا على فهم الأسباب التي حملت الألمان على الضلال في المقام الأول، إلا أن الغياب شبه الكلّي لأي رجع أمر غير مفهوم أبداً . ألم يكن ثمة قادة جيوش كان بوسعهم أن يأمروا جنودهم بفعل كل شيء يروق لهم ؟ لماذا إذن كان الرجع غائباً كلياً ؟ لا يسعني إلا أن أفسر ذلك إلا أنه قد جاء نتيجة لحالة غريبة طرأت على العقل، استعداد عابر أو مزمن إن كان في الفرد سمّيناه هستيريا .

بما أني لا أستطيع التسليم بأن غير صاحب الاختصاص يعلم تماماً ماذا تعنيه الـ « هستيريا »، رأيت من الخير أن أفسر « الاستعداد الهستيري » بأنه يشكل فرعاً مما يُسمّى « النقائص السيكوباثيطيقية » . لا ينطوي هذا الاصطلاح على أن الفرد أو الشعب « ناقص » من كل وجه، بل إن هناك مكاناً تكون فيه المقاومة في حدها الأدنى، وهو حالة من القلق الخاص يوجد في معزل عن جميع الصفات الأخرى . معنى الاستعداد الهستيري أن الأضداد المتأصلة في كل نفس، وخصوصاً الأضداد التي تؤثر في

الشخصيــة، منفصــل بعضها عن بعض أكثر من انفصــالها في الناس العاديين . هذه الفُرجة الواسعة تُحدث توتراً طاقياً عالياً، هو السبب في الطـاقة والاندفاع اللذين لا ينكرهما أحد من الألمان . من ناحية ثانية، الفُرجة الواسعـة بين الأضـداد تحدث تنـاقضـات داخلية، منازعات في الضمير، تنافراً في الشخصية ــ باختصار، كل شيء نراه في « فاوست » كما وصفه غوتيه . ما من أحد غير ألماني كان بوسعه أن يصنع مثل هذه الشخصية؛ إنها شخصية ألمانية في الصميم وبلا حدود . في « فاوست » نجد نفس «الجوع إلى اللانهاية» المتولد عن التناقض والانقسام الداخليين، نفس التـوقع الاسـكـاتولوجي للإتمام العظيم **Great Fulfilment**. في « فاوست » نختبر أعلى تحليق للعقل والنزول في أعماق الذنب والظلام، وما هو أسوأ، نختبر سقوطاً بلغ من عمقه مبلغاً يغوص فاوست معه إلى مستوى مشعوذ أو دجال وقاتل بالجملة نتيجة للميثاق الذي عقده مع الشيطـان. فاوست منشطر أيضــاً و«الشر» يقيم خارج نفســه في هيئة مفيستـوفيـل، ليقـوم بدور شـــاهد نفي عنـد الاقتضــاء. كذلك «لا يعلم شيئاً عما حدث »، أي ماذا فعل الشيطان بفيلمون وباوقيس . لا يتكون لدينا انطباع بأن عنده تبصرةً أو يعاني من ندم حقيقي . عبادته للنجـاح التي يعـترف ولا يعترف بها تقف حائلاً في طريق كل تفكير أخلاقي بصفـة دائمة؛ تسدل ستاراً مظلماً على الصراع الأخلاقي، حتى تظل شخصية فاوست الأخلاقي شخصية يكتنفها الضباب . لا يصل أبداً إلى شخصية الواقع : ليس كائناً بشرياً ولا يستطيع أن يكون (على

الأقل ليس في هذا العالم) . يظل يمثل الفكرة الألمانية عن الكائن البشري، وبالتالي صورة ـــ منهكة ومشوهة قليلاً ـــ عن الألماني المتوسط .

إن جوهر الهستيريا هو تفرّق منظّم، تفكك للأضداد التي تكون في الأحوال الطبيعية مترابطة برباط وثيق . وقد يذهب هذا التفكّك إلى حد إحداث انشطار في الشخصية، وهو حالة لا تعرف فيها إحدى اليدين ما تفعله الأخرى بالمعنى الحرفي لهذه العبارة . الأصل أن يكون هناك جهل مذهل للظل؛ المهستر لا يعرف غير دوافعه الطّيبة، وعندما يتعذّر عليه نكران دوافعه الخبيثة يصبح ذلك السوبرمان الذي لا يتقيّد بقاعدة أخلاقية ويعتقد أن عظمة الغاية التي يسعى إلى تحقيقها ترفعه إلى مرتبة النبالة .

إن جهل الإنسان لجانبه الآخر يخلق فيه خوفاً داخلياً عظيماً . في مثل هذه الحالة لا يعرف الإنسان من هو فعلاً؛ يشعر أنه ناقص في مكان ما، ومع ذلك لا يريد أن يعرف أين يكمن نقصه، مما ينجم عنه إضافة نقص جديد إلى نقصه الأصلي . هذا الشعور بعدم الأمان هو مصدر الهيبة في سيكولوجية المهستر، والحاجة إلى نيل الإعجاب والتباهي بقدراته والإلحاح عليها وظمئه الذي لا يرتوي إلى نيل الاعتراف والإعجاب والإطراء والسعي لأن يكون محبوباً . وهو أيضاً السبب في الغطرسة الصارخة والاستعلاء والوقاحة وقلة اللباقة التي جلب بها كثير من الألمان سمعة سيئة لمواطنيهم في الخارج، وهم الذين يطأطئون رؤوسهم كالكلاب في بلادهم، ثم إن عدم الأمان يرجع إليه أيضاً افتقار الألمان المأساوي إلى

الشجاعة المدنية وقد انتقدهم على ذلك بسمارك (ما على المرء إلا أن يتذكر الدور المؤسف الذي قام به القادة الألمان) .

الافتقار إلى الواقع، وهو افتقار صارخ جداً عند فاوست، ينتج افتقاراً إلى الواقعية يناسبه عند الألماني . الألماني يتكلم عن الواقعية فقط، يتبجح بواقعيته « الباردة كالجليد »؛ وهذا وحده كافٍ لأن يكشف عن هسْتَرَتِهِ . وما واقعيته إلا وضع مصطنع يتخذه للمباهاة، واقعية مسرحية . كل ما يفعله أن يقوم بدور مَن عنده حسّ بالواقع، لكنه ماذا يريد أن يفعل بالفعل ؟ يريد أن يغزو العالم على الرغم من كل العالم . طبعاً، ليس عنده فكرة عن إمكانية تحقيق ذلك . هو لسوء الحظ، سرعان ما يخترع سبباً واضحاً يفسر به عوامل الفشل متوسلاً إلى ذلك بالأكاذيب وسرعان ما يصدقها الناس . كم من الألمان من سيطرت عليه خرافة « الطعنة في الظهر » في عام ١٩١٨ ؟ وكم من خرافة عن « طعنة في الظهر » يجري تداولها اليوم . تصديق المرء أكاذيبه عندما تكون الرغبة أباً للكذب هو عَرَض هستيري شهير جداً وعلامة فارقة على نقص . ولقد يعتقد المرء أن حمام الدم الذي جرى في الحرب العالمية الأولى كان كافياً، لكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث أبداً، بل كان المجد والغزو والتعطش إلى الدم، كان كل ذلك بمثابة ستار من دخان أُسدِل على العقل الألماني أدّى إلى انطماس الواقع تماماً، وفي أحسن الأحوال لم يُدْرَك إلا على نحو غامض . هذه الأعراض عندما تتوفر في الفرد نسميها « الحالة الشفقية الهستيرية » . لكن عندما تجد أمة بأسرها في مثل هذه الحالة يستتبع ذلك وجود

« فوهرور » يكون بمثابة وسيط يقفز فوق أسطحة المنازل، مطمئناً اطمئنان من يسير في النوم، لكن لكي يحط على أرض الشارع وقد انقصم ظهره .
لنفرض أننـا، نحن السويسريين، بدأنا مثل هذه الحرب، ورمينا بكل خبرتنا وتحذيراتنا ومعرفتنا للعالم لكي تذهب أدراج الرياح بنفس العمى الذي أصـاب الألمـان، ثم ذهبنـا لحد إصدار طبعة أصـلية عن كتاب **Buchen Wald** في بلدنا .
عندئذٍ نبدي تعجباً مشوباً بمتعاض أن يقول أجنبي أن السويسريين كلهم قوم مجانين .ما من إنسان عاقل يستغرب هذ الحكم، لكن هل نستطيع أن نقول هذا عن ألمانيا ؟ أتساءل عما يفكر فيه الألمان نفسهم . كل ما أعرفه أننـا لم نكن نستطيع أن نقول هذه الأشياء بصوت عالٍ عندما كانت الرقابة مفروضة على سويسرا، ويبدو لي أننا لا نستطيع أن نقولها الآن لأن ألمانيا مطروحة أرْضاً . لكن بودّي أن أتساءل، متى يحق للمرء أن يكوّن رأياً عن نفسه، إن كان يحق له ذلك أصلاً ؟ في نظري أن تاريخ السنـوات الأثنـتي عشـرة المـاضيـة لهو بمثـابة بطـاقة (فيش) لمريض هستيري . وهذه الوثيقة يجب الا تُحْجَبَ عنه، لأن الطبيب إذ يشخّص مرضاً فإنما يفعل ذلك باعتباره جزءاً من جهده الرامي إلى إيجاد علاج، لا لأنه يريد إيذاء المريض أو التقليل من شأنه أو إهانته . ليس العصاب، أو الاستعداد العصابي، لعنة بل عائق، وهو أحياناً مجرد طريقة تعبير . ليس مْرضـاً قاتلاً، لكنه يتفاقم إلى درجة يقرر معها المريض أن يتجاهلها . عندما أقول أن الألمان مَرْضى نفسياً فهذا الوصف أخفّ من القول أنهم قوم مجرمون . ليست بي رغبـة في استثارة حسـاسية الإنسـان المصـاب

بالهستيريا، وهي حساسية سيئة السمعة كما نعلم، لكنه يأتي وقت لا نستطيع فيه لتمويه على جميع الأعراض الأليمة ومساعدة المريض على نسيان ما حدث لمجرد أن تبقى حالته المرضية بدون إزعاج . لست، أريد أن أهين الألماني الصحيح العقل والمحترم فأصفه بالجبان الذي يهرب من صورته . علينا أن نكرمه بمعاملتنا له كما نعامل إنساناً، وأن نعلمه الحقيقة، ولا نخفي عنه أننا قد روّعتنا الأشياء الرهيبة التي حدثت في بلاده وفي سائر أنحاء أوربا، وكان مرتكبوها هم الألمان أنفسهم . نحن مُهانون وساخطون ولا نملك مشاعر اللطف المحب، وليس بوسع مقدار من العزم أو قوة الإرادة مهما بلغ أن يلوي هذه المشاعر ويحولها إلى « محبة القريب » المسيحية . من أجل الألمان الأصحاء العقول والمحترمين علينا ألاّ نحاول فعل ذلك؛ لابدّ أنهم يفضلون الحقيقة على الصمت المهين .

لا يتأتّى لنا شفاء الهستريا بطمس الحقيقة، لا فرق في ذلك أن يكون المصاب بها فرداً أو أمة . ليس أشد الناس جنوناً هو المجنون المطبق؛ إذ يظل عدد كبير من وظائفه يعمل بصورة طبيعية، لابل قد يكون هو نفسه أقرب إلى السلامة العقلية أحياناً . وهذا أكثر مما ينطبق على حالة الهستيريا التي ليس فيها من خطأ سوى مبالغات وإفراطات من جهة، وضعف أو شلل وقتي يصيب الوظائف الطبيعية من جهة ثانية . المُهَسْتِر، على الرغم من مرضه النفسي، قريب جدً من الحالة السويّة تماماً على الرغم من أن مجمل الصورة لا يمكن وصفها إلا بالهسْتَرَة .

لا شك أن للألمان سيكولوجيتهم الخاصة التي تميزهم من جيرانهم، على الرغم من الصفات الكثيرة التي يشتركون فيها مع سائر أبناء البشر .

ألم يقدموا الدليل للعالم على أنهم يعتبرون أنفسهم « العرق المتفوق » وإن لهم الحق في عدم التقيّد بأي مبدأ أخلاقي إنساني ؟ لقد وصموا الأمم الأخرى بالانحطاط وفعلوا كل ما بوسعهم للقضاء عليها .

بالنظر إلى الوقائع الرهيبة، يكون من تافه الأمور أن تقلب المنصّة على « العرق المتفوق »، وتطبّق تشخيص النقص على القاتل بدلاً من القتيل، بينما تظل واعياً تماماً أنك إنما تهين جميع الألمان الذين عانوا من آلام النكبات التي حلّت بأمتهم بأعين مفتوحة . لكننا، ونحن الأوربيون ــ وهذه رابطة أخوة تضم الألمان أيضاً ــ نشعر بأننا مجروحون . فإذا جَرَحْنا بدورنا، فليس ذلك بقصد التشفّي أو التعذيب، بل بقصد اكتشاف الحقيقة كما قلت قبلاً . مثلما هو الحال في الذنب الجماعي، يمتد تشخيص الحالة العقلية إلى أمة برمّتها، لا بل إلى أوربا كلها، التي ظلت حالتها العقلية منذ وقت ما ليست بالحالة السليمة تماماً . سواء أكنا نحب ذلك أم لا، فإننا ملزمون بالسؤال : ماذا جرى للفن، وهو أدق أداة تعكس النفس القومية ؟ كيف نفسر العنصر المرضي الصارخ في الرسم الحديث ؟ والموسيقى الخالية من اللحف ؟ والأثر البعيد الذي أحدثه جُويس في روايته، يوليسيز، التي ليس لها قرار ؟ هنا نجد جرثومة ما قد أصبح واقعاً سياسياً في ألمانيا .

الأوروبي بل الإنسان الأبيض عموماً، ليس في وضع يتيح له الحكم على حالته العقلية، لأنه بلغ ضلوعه في مشكلته حد الإفراط . ولقد أردت دائماً أن أرى الأوروبيين من خلال عيون غير أوروبية إلى أن أتيح لي في رحلاتي الكثيرة أن أقيم علاقات وثيقة مع غير أوروبيين كانت كافية لأن

أعرف الأوروبي من خلال رؤيتهم له . الإنسان الأبيض عصبي، قلق، عجول، لا يقر له قرار، و(في عيون غير الأوروبيين) تستحوذ عليه أشد الأفكـار جنوناً، على الرغم من طاقته ومواهبه التي تمنحه الشعور بتفوقه الذي لا يقف عند حد . الجرائم التي اقترفها بحق العروق الملونة لا حصر لها، وإن كان من الواضح أن هذ لا يسوّغ له اقتراف جريمة جديدة، تماماً كما أن الفرد لا يكون في وضع أفضل لوجوده في صحبة عدد كبير من الأشـرار . البدائيون تخيفهـم النظرات الحادة المركّزة التي ترسـلها عين الأوروبي، وهي تبدو لهم كالعين الشريرة . وقد أسر لي أحد شيوخ قبائل الـ « بوابلو » ذات مرة أنه يعتقد أن جميع الأميركيـين (النـاس البيض الذين عرفهم دون غيرهم) قوم مجانين، والأسباب التي استند إليها في هذا الرأي بدت تماماً كالأوصاف التي يوصف بها المستَلَبون . حسناً، قد نكون مُسْتَلَبين . لأول مرة منذ فجر التاريخ ننجح في ابتلاع الإحيائية البدائية إلى داخل نفوسنا، ومعها الروح التي أحْيت الطبيعة . ليست الآلة وحدها هي التي نزلت عن أفلاكها الكوكبية وتحولت إلى شياطين سفلية، بل حتى هذه العصبة من الشياطين التي ظلت إلى زمن باراقلسوس تلهو وتمرح في الجبال والغابات والأنهار وفي الأماكن التي يسكنها الإنسان استحالت إلى بقية بائسة ثم تلاشت كليّةً تحت تأثير التنوير العلمي . منذ زمن لا ترقى إليـه الذاكرة، كانت الطبيعة ممتلئة بالروح دائماً . أما اليوم فنحن نعيش لأول مرة في طبيعة خالية من الحياة ومجرّدة من الآلهة . ما من أحد ينكر الدور الهـام الذي لعبتـه في المـاضي قوى النفس البشـرية المشخّصـة كَـ « آلهة » . ربما دمّر فعل التنوير أرواح الطبيعة، لكنه لم يدمر العوامل

النفسية التي تناسبها، كقابلية الإيحاء وقلة النقد والخوف والميل إلى الخرافة والانحياز ـــ باختصار، جميع الصفات التي تجعل من الاستحواذ أمراً ممكناً . فالطبيعة وإن تجرّدت من النفس، فإن الشروط النفسية التي رعت الشياطين تظلّ فاعلة كما كانت من قبل . والشياطين لم تختف فعلاً، بل كل ما فعلته أنها اتخذت هيئة أخرى : لقد أصبحت قوى نفسية خفية . لقد سار سياق إعادة الامتصاص هذا جنباً إلى جنب مع سياق تضخم الأنيّة Ego الذي زاد وضوحاً بعد القرن السادس عشر . ثم بدأنا نعرف النفس، ثم كان اكتشاف النفس حكاية مؤلمة بصفة خاصة، كما يبين لنا التاريخ . في نفس الوقت الذي راح فيه الناس يهنئون أنفسهم على قضائهم على الأشباح، اتضح أن الأشباح بدلاً من أن تسكن السقيفة أو الخرائب القديمة صارت تحوم في رؤوس الأوروبيين الأسوياء ظاهرياً . حيثما ذهبت وجدت أفكاراً وأوهاماً تتصف بالطغيان والاستحواذ والتسميم، وأناساً يؤمنون بأسخف الأشياء، تماماً كما يفعل المسْتَلَبون .

الظاهرة التي شهدناها في ألمانيا لم تكن إلا انفجاراً أول للجنون الوبائي، انفجاراً للخافية في عالم بدا لنا محكم التنظيم . إن أمة باسرها، وملايين لا تحصى ينتمون إلى أمم أخرى، قد اجتاحها جنون ملطّخ بالدم، جنون حرب إبادة . ما من أحد كان يعلم ما يحدث له، وكان أقل الناس علماً هم الألمان، الذين سمحوا لأنفسهم أن يسوقهم إلى مسلخ الذبح كأغنام منوَّمة قادة بهم لُوثة في عقولهم . ولعل الألمان كان مقدّراً لهم أن يصلوا إلى هذا المصير، لأنهم لم يظهروا غير مقاومة ضعيفة للعدْوى العقلية التي كانت تهدد كل أوروبي . لكن مواهبهم الخاصة ربما أتاحت

لهم أن يكونوا هم الشعب المؤهل لاستخلاص نتائج مسعفة من مثال نيتشيه النبوئي . لقد كان نيتشيه ألمانياً حتى نخاع عظمه، بل حتى رمزية جنونه التي يتعذر فهمها . وكان ضعف من بعقله لوثة هو الذي حمله على اللعب بفكرة « الوحش الأشقر » و« السوبرمان » . لقد كان من المؤكد أن العناصر السليمة في الأمة الألمانية ليست هي التي أدّت إلى انتصار هذه التخيلات المَرَضيّة على نطاق لم يكن معروفاً من قبل . ثم أن ضعف الشخصية الألمانية، مثل شخصية نيتشيه، اتضح أنه كان تربة خصبة للتخيلات الهستيرية، على الرغم من وجوب تذكر أن نيتشيه نفسه لم ينتقد الرجل العاميّ الألماني نقداً شديداً وحسب، وإنما ترك نفسه غرضاً للهجوم على جبهة واسعة . هنا أيضاً أُتيحت للألمان فرصة لا تقدر بثمن من أجل معرفة أنفسهم، لكنها انزلقت من أيديهم . ما الذي لم يكن باستطاعتهم أن يتعلموه من مقطوعة « فاغنر » : الشحم وقطر السكر ؟

مع ذلك، عندما تأسس الرايخ في عام ١٨٧١ ذلك التأسيس المشؤوم، كان الشيطان يخاتل الألمان، ويُصْلي لهم فخ القوة والتضخم والغطرسة القومية، فانساقوا يحاكون أنبياءهم ويأخذون كلامهم حرفياً من دون فهم . بذلك سمحوا لأنفسهم أن تضلّهم هذه التخيلات المفجعة، وأن يقعوا تحت الإغراءات الشيطانية القديمة، بدلاً من الالتفات إلى إمكاناتهم الروحية الزاخرة التي كانت خليقةً بأن تجعلهم يقفون في موقع ممتاز، بسبب التوتر الشديد القائم بين الأضداد التي تنطوي عليها نفوسهم . لكنهم إذا نسوا مسيحيتهم، باعوا أرواحهم إلى التكنولوجيا، واستبدلوا بالأخلاق السخرية، ومحضوا أعلى مطامحهم لقوى الدمار . صحيح أن

كل شخص آخر كان يفعل نفس الشيء تماماً؛ لكن حتى ولو كان الأمر كذلك، فهناك أناس مختارون لا يحق لهم أن يفعلوا مثل هذه الأشياء، لأنه يتعيّن عليهم العمل على الوصول إلى كنوز عليا . على كل حال، ليس الألمان من الذين يتمتعون بالقوى والملكات ويفلتون من العقاب . ما عليك إلا أن تفكر لحظة فيما تعنيه معاداة السامية للألماني : يحاول أن يتخذ من الآخرين كبش فداء عن أفدح أخطائه . لقد كان هذا العَرَض وحده كفيلاً بأن يعلمه بأنه إنما سار في الطريق غير الصحيح الذي لا يؤدي إلى غاية .

بعد الحرب العالمية الأخيرة، تعين على العالم أن يعيد حساباته، ويقع هذا العبء فوق كل شيء على عاتق ألمانيا التي هي المركز العصبي من أوربا . لكن العقل أصبح سلبيّاً؛ أهمل المسائل الحاسمة، وراح يلتمس الحلول في سلْبيته بالذات . ما أعظم الفرق في زمن **الإصلاح** ! يومئذٍ ارتفع العقل الألماني برجولة إلى مستوى احتياجات العالم المسيحي، رغم أن الجواب الذي أعطاه ـــ كما لعلنا نتوقع من التوتر الألماني بين الأضداد ـــ كان فيه غلوٌّ شديد . لكنه على الأقل لم يحجم عن التصدّي لمشكلاته . كان غوتيه نبياً أيضاً عندما نصب أمام قومه مثال فاوست، كما يقول بركهارت، قد أصاب وتراً في نفس كل ألماني، فإن هذا الوتر مازال ماضياً في طنينه، وإننا لنسمع صداه في سوبرمان نيتشيه، الذي يعبد الغريزة ولا يكترث للجانب الأخلاقي من الموضوع، وهو الذي مات إلهه، ويزعم أنه إله هو نفسه، أو شيطان فيما وراء الخير والشر على مسافة ستة آلاف قدم . لكن أين اختفى الجانب المؤنث من نيتشيه، النفس ؟ هيلين

توارت في غيـابة الجحيم، ويوريديك لن يعود أبداً . لقد رأينـا المحاكاة المضحكة المميتة للمسيح المرفوض : النبي المريض هو نفسه المصلوب . وإذا رجعنـا إلى الوراء أكثر، كان هو ديونيسـوس ـ زغروس المقطّع الأشلاء . النبي العربيد ينقلنا إلى الماضي المنسيّ البعيد : كان قد سمع نداء القدر في صفير الصيّاد الحادّ، إله الغابات ذات الخشخشة، والنشوة السكرى، ومقاتلي الشمال الأشداء الذين استلبتهم أرواح الحيوانات المتوحشة .

بينما كان نيتشيه يستجيب نبوئياً إلى انقسام العالم المسيحي متوسلاً إلى ذلك بالفكر، كان أخوه في الروح، ريتشارد فاغنر، يفعل نفس الشيء متوسّلاً بالموسيقى . حقب ما قبل التاريخ الجرمانية تصّاعد إلى الأعلى صخّابة صاعقة لكي تردم الهوّة التي حدثت في قلب الكنيسة . فاغنر أنقذ روحه بـ « بارسيفال »، الذي لم يستطع نيتشيه أن يغفر له ذلك أبداً، لكن « قلعة الكأس » تلاشت في بلاد مجهولة . الرسالة لم ينصت إليها أحد، والفأل مضى دون أن يلتفت إليه أحد . الغضب المعربد انتشر وسرى كما ينتشر ويسْري الوباء . و« فوطان »، إله العاصفة، يحرز نصراً مؤزّراً . لقد أحس أرنست يونغر كلَّ هذا بكل جلاء : في كتابه المُعَنْوَن « في صخور المرمر »، يدخل البلاد صياد متوحش ومعه موجة من الاستحواذ أعظم من كل ما عُرف في العصور الوسطى . ما كان للروح الأوروبي أن يتكلم بوضوح أشد مما فعل في ألمانيا، وما أسيء فهم هذا الروح بصورة مأساوية كما أُسيء فهمه في ألمانيا .

لقد عانت ألمانيا من نتائج الميثاق الذي عقدته مع الشيطان،

واختبرت الجنون ثم تقطّعت مِزَقاً كما تقطّع زغروس . لقد استباحها جند إلهها « فوطان »؛ خُدعت عن نفسها من أجل الذهب والسيطرة على العالم، وتجسّتْها الحثالة الصاعدة من أسفل الأعماق .

يجب على الألمان أن يعرفوا أن أسباب غضب العالم كله عليهم ترجع إلى خيبة أمله منهم . كان كل الناس مجمعين على الاعتراف بمواهبهم وفعاليتهم، ولم يكن أحد يشك في قدرتهم على الإتيان بأشياء عظيمة . ولذلك كانت الخيبة أشدّ وأمرّ . لكن قدر ألمانيا يجب ألا يحمل الأوروبيين على احتضان الوهم بأن كل ما في العالم من شر قد اتخذ له مثابة في ألمانيا . وعليهم أن يعلموا أن الكارثة الألمانية لم تكن إلا أزمة (= كريزا) في الداء الأوروبي العام . قبل مدة طويلة من العهد الهتلري، وتحديداً قبل الحرب العالمية الأولى، كان ثمة أعْراض على التغيير العقلي الذي كان يحدث في أوربا . كانت صورة القرون الوسطى عن العالم تتشقق وكانت السلطة الميتافيزيقية التي سادت العلم تتوارى سريعاً، لكن لكي تعود ثانية في هيئة الإنسان . ألم يعلن نيتشيه أن الله قد مات وأن وارثه هو السوبرمان، ذلك الذي يرقص على الحبل والمجنون المحكوم عليه بالهلاك ؟ هناك قانون سيكولوجي لا يتبدّل : عندما يصل **الإسقاط** إلى نهايته يعود دائماً إلى منشئه . وعندما يضرب امرؤ على الفكرة المفردة بأن الله ميت، أو غير موجود، تنكفئ صورة الله النفسية، التي هي جزء حَرَكيّ من البنية النفسية، راجعة إلى صاحبها وتنتج أحوالاً من « كلّية القدرة الإلهية »، أي جميع الصفات التي يتّصف بها البُلْهُ والمجانين، وتؤدي بالتالي إلى الكارثة .

هذه هي إذن المشكلة العظمى التي تواجه المسيحية بأسرها : أين هو

الآن المؤيد للخير والعدل، الذي كان معلقاً ذات مرة في الميتافيزيقا ؟ هل هي في الحقيقة قوة رعناء تلك التي تقرر كل شيء ؟ هل السلطة الأخيرة النهائية هي فقط إرادة أي إنسان يتفق له أن يكون في موقع السلطة ؟ لو خرجت ألمانيا من الحرب ظافرة، لكان بوسع المرء أن يؤمن، أو يكاد، بأن ظفرها كان هو الكلمة الأخيرة . لكن بما أن « ريخ الألف سنة » لم يلبث بضع سنوات حتى تداعى أنقاضاً، صار لدينا استعداد لأن نتعلم الدرس الذي مفاده أن هناك قوى أخرى قادرة في النهاية على تدمير كل مُعْتدٍ ظالم، وأنه ـــ تبعاً لذلك ـــ لا جدوى من البناء على مبادئ غير صحيحة . لكن لسوء الحظ، كما بين لنا التاريخ، لا تؤول الأشياء دائماً إلى هذا النحو من المعقولية في هذا العالم .

« الكلّية القدرة الإلهية » لا تجعل من الإنسان كائناً إلهياً، بل تملؤه بالغطرسة وتستثير كل ما فيه من ميول إلى الشر . ينتج عنها كاريكاتور إنسان شيطاني، وهذا القناع غير الإنساني لا يُطاق ارتداؤُه لأنه يعذب صاحبه فيحمله على إنزال العذاب بالآخرين . هو كائن منقسم على نفسه، فريسة لتناقضات لا تفسير لها . هي ذي صورة عن حالة العقل الهستيرية، عن « المجرم الشاحب »، كما دعاه نيتشيه . لقد وضع القدر كل ألماني وجهاً لوجه مع نظيره الداخلي : فاوست وجهاً لوجه مع مفيستوفل، ولم يعد بوسعه القول : « وهكذا كانت حقيقة الوحش ! » . بدلاً من ذلك يتعيّن عليه أن يعترف : « ذلك هو جانبي الآخر، أنيّتي الأخرى، ظلّي الحسّي إلى حدّ الإفراط الذي لم يعد نكرانه أمراً ممكناً . »

ليس هذا قدر ألمانيا لوحدها، بل هو قدر أوربا كلها . يجب علينا أن

نفتح عيوننا على **الظل** الذي يتبدّى خلف الإنسان المعاصر . لا حاجة بنا إلى إلقـاء ذنوبنا على الألمان ملوّحين أمامهم بقناع الشيطان . فالوقائع تتكلم لغة أوضح، وكل من لا يفهمها فهو في حالة ميْئوس منها . أما ما يجب فعـله حيـال هذا الشبح المرعب، فعلى كل إنسـان أن يتدبر أمره بنفسـه . والحق إن مسـألة أن يعرف المرء ذنبه والشر الذي فيه ليست بالمسألة الصغيرة، ولا شك أنه ما من فائدة تُرجى من غياب ظل الإنسان عن ناظره . عندما نعي ذنبنا نكون في وضع أكثر ملاءمةً، إذ نستطيع على الأقل أن نغير أنفسنا ونحسّنها . كما نعلم، كل ما يبقى في الخافية يتعذر تصحيحـه؛ لأن التصحيحـات السيكولوجيـة لا تتم إلا في الواعيـة . فالشعور بالذنب يمكنه تبعاً لذلك أن يعمل كمحرّض أخلاقي شديد . في كل معالجة للعصاب لا غنى عن اكتشاف **الظل**، وإلا لم يتغير شيء . بهذا الخصوص، أعتمد على تلك الأجزاء من الجسم الألماني السياسي لكي استخلص منه نتائج تعينني على التشخيص . لسوء الحظ، بدون ذنب لا يمكن أن تنضج نفس ولا أن يتوسع أفق لروح . ألم يقل المعلم آلهارت : « لهذا السبب يريد الله أن يحمـل صدمة الآثام وغالباً ما يتغاضى عنها، وأكثر ما يرسلها إلى أناس قد أعدّ لهم مصيراً سامياً . هل كان أحد أحب إلى الرب وأقرب إلى نفسه من تلاميذه ؟ ولا واحد منهم من لم يقترف خطيئة مميتة؛ لقد كانوا كلهم خطاة مائتين » .

حيثما كانت الخطيئة كبيرة، « كانت النعمة غَدَقاً » . مثل هذه الخبرة تحدث تحوّلاً داخليـاً؛ وهذا أهم بكثـير من الإصـلاحات السيـاسيـة والاجتماعيـة التي لا قيمـة لها إن كانت في أيدي أناس منقسمـين على

أنفسهم . هذه حقيقة ننساها دائماً، لأن عيوننا تخدعنا عنها الشروط المحيطة بنا وتَتَبَسْمر فيها فلا نفحص قلوبنا ولا ننظر في ضمائرنا . كل داعية غوغائي يستغل هذا الضعف البشري عندما يشير صائحاً بأعلى صوته إلى جميع الأشياء الخاطئة التي تحدث في العالم الخارجي . لكن الشيء الخاطئ الرئيسي، بل الشيء الخاطئ الوحيد، في العالم إنما هو الإنسان .

لئن كان الألمان يعانون اليوم من أزمنة عصيبة في الخارج، لقد أتاح لهم القدر فرصة فريدة لكي يديروا أعينهم نحو الإنسان الذي في داخلهم، لعلهم بذلك يتمكنون من إصلاح خطيئةِ غفْلةٍ، حضارتُنا كلها واقعة فيها . لقد فعلنا كل شيء ممكن من أجل عالمنا الخارجي : لقد بلغ إتقاننا للعلم مَدَى لم نكن نتصوره من قبل، وبلغ إنجازنا التقاني درجة خارقة من الإتقان . لكن ماذا عن الإنسان، الذي نتوقع منه أن يستفيد من هذه النعم بطريقة حكيمة ؟ لقد اعتبرنا المسألة أمراً مسلَّماً به . لكن ما من أحد توقف لحظة لكي يتضح له أنه لم يتكيف على أي نحو من الأنحاء مع هذه التغيرات لا أخلاقياً ولا سيكولوجياً . لقد طفق يتمتع سعيداً، كأي طفل من أولاد الطبيعة، بهذه الألعاب الخطرة، في غفلة تامة عن **الظل** الذي يكمن خلفه، مستعداً للإمساك بها في حرص الشَّرِهِ، ويقلّبها أمام بشرية مازالت في غيبوبة طفولية عن الشعور . لكن أي إنسان خَبِرَ مباشرة هذا الشعور باليأس والاستسلام لقوى الظلام أكثر من الألماني الذي وقع في قبضة بني جلدته من الألمان ؟

لو تفهمنا الذنب الجماعي وسلّمنا به، لخطونا خطوة عظيمة إلى الأمام . لكن الفهم وحده غير كاف للشفاء، تماماً كما لا يشفى المعصوب

بمجرد فهـم أسباب عصـابه . ويظل السؤال هو : كيف ينبغي لي أن أعيش مع هذا الظل ؟ ما هو الموقف المطلوب مني إذا كان علي أن أعيش على الرغم من الشر ؟ لكي أجد أجوبة صحيحة عن هذه الأسئلة، أحتاج إلى تجديد روحي تام . وهذا لا يُعطى مجاناً؛ كل إنسان عليه أن يجاهد نفسـه لتحقيقه . ما من وصفة قديمة كان لها قيمة في وقت ما أن تأتي بمفعولها ثانية . الحقائق الأزلية لا تُنقل بطريقة آلية، بل لابد لها أن تولد من النفس البشرية ولادة جديدة في كل عصر .

الصراع مع الظل*

ما لا يوصف من الأحداث التي جرت في العقد الأخير من السنين تقودنا إلى القول بان اضطراباً نفسياً من نوع خاص قد يكون سبباً ممكناً . فلو سألت طبيباً نفسياً رأيه في هذه الأشياء، لتعين عليك، بطْبيعة الحال، أن تتوقع منه الحصول على جوابٍ من وجهة نظره الخاصـة . والطبيب النفسي، وهو العالم، لا يدعي أنه عارف بكل شيء، لأنه يعتبر رأيه مجرد مساهمة في المهمة المعقدة الهائلة الرامية إلى إيجاد تفسير شمولي .

عندما ننطلق من علم الأمراض النفسية، ليس من السهل أن نخاطب جمهوراً قد يضم أناسـاً لا يعـلمون شيئاً عن هذا الحقل الاختصـاصي الصـعب . لكن هنـاك قاعدة بسيطـة واحدة يجب أن نضعهـا نصب أعيننـا : أن سيكوباثولوجية (= المرض النفسي) الجمهور متجذرة في سيكولوجيـة الفرد . فالظـاهرة النفسيـة التي هي من هذا النوع، يمكن البحث عنها في الفرد . وما لم نُوَفَّق إلى التثبّت من ظاهرات أو أعراض معينة يشترك فيها عدد من أفراد مختلفين، لا يمكننا أن ندرس سيكولوجية قَبَلية (= جماعية) مشابهة .

---

* حديث أذيع في البرنامج الثالث في هيئة الإذاعة البريطانية في الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٤٦ .

وكما لعلكم تعلمون، إني آخذ في اعتباري سيكولوجية الواعية والخافية كليتها، وهذا يؤدي بنا إلى البحث في الأحلام . والأحلام نواتج طبيعية تصدر عن فعالية النفس الباطنة . ولقد علمنا، منذ زمن طويل، بوجود علاقة بيولوجية بين السياقات الباطنة ونشاط العقل الواعي . وخير ما توصف به هذه العلاقة إنها **تعويض**؛ مما يعني أن كل نقص في الواعية ــ كالمبالغة أو الأحادية أو نقص وظيفة ــ يكمله سياق الخافية بما يناسب .

منذ عام ١٩١٨ لاحظت اضطرابات غريبة في خافية المرضى من الألمان الذين عالجتهم، وهي اضطرابات لا ترجع إلى سيكولوجيتهم الشخصية . تظهر مثل هذه الظاهرات غير الشخصية دائماً في الأحلام على هيئة موضوعات ميثولوجية نجدها أيضاً في الأساطير وقصص الحور في جميع أنحاء العالم . ولقد أطلقت على جميع هذه الموضوعات تسمية « النماذج البدائية » archetypes : أي، صيغ أو أشكال يجري فيها اختبار هذه الظاهرات الجماعية . لقد كان ثمة اضطراب في الخافية الجماعية عند كل فرد من مرضاي الألمان . بوسعنا أن نفسر هذه الاضطرابات تفسيراً سببياً، لكن هذا التفسير غير خليق به أن يكون تفسيراً كافياً، لأنه أسهل علينا أن نفهم النماذج البدائية التي لاحظتها تعبر عن بدائية وعنف وشراسة . وعندما رصدت عدداً كافياً من هذه الحالات، اتّجه انتباهي إلى الحالة العقلية الغريبة التي كانت سائدة يومئذٍ في ألمانيا . لم يكن في وسعي يومئذٍ أن أتبيّن غير علامات على اكتئاب وقلق عظيمين، لكن هذا لم يكن ليبدّد شكوكي . في ذلك الوقت نشرت

مقـالاً قلت فيه أن « الوحش الأشقر » يتململ في نَوْمة غير مريحة ولا يستبعد أن ينفجر*

لم تكن هذه الحالة ظاهرة توتونية صرفة، كما اتضح ذلك في السنوات التي تلت . فلقد كان انقضـاض القوى البدائيـة أمراً عالمياً على وجه التقريب . والفرق الوحيد يكمن في العقلية الألمانية، وقد ثبت أنها أكثر تعرّضاً للإصابة بسبب ميل الألماني الظاهر إلى سيكولوجية القبيلة . زد على ذلك أن الهزيمة والنوازل الاجتماعية قد زادت من غريزة القطيع عند الألمـان حتى لقد غدا من المحتمل جداً أن تكون أول ضحية بين الأمم الغربية ضحية حركة قَبَلية يأتي بها فَوَران قوى كانت هاجعة في الخافية، مستعدة لأن تقتحم جميع الحواجز الأخلاقية . وفقاً للقاعدة التي تقدم ذكرها، فقد كان المراد من هذه القوى أن تكون قوى تعويضية . وهي إن ظلت في الخافية، ولم تنضم إلى الواعية في فرد، فقد تؤدي به إلى عُصاب أو حتى إلى جنون . وينطبق نفس الشيء على الجماعة . واضح أن شيئاً خاطئاً في الموقف الواعي أدى إلى قيام حركة تعويضية من هذا النوع، شيئاً ما لا بد وأن كان مفقوداً أو مبالغاً فيه؛ لأن الواعية الخاطئة وحدها هي التي تتطلب حركة معاكسة من جانب الخافية . وكما تعلمون، هناك من الأشيـاء غير الصحيحة ما لا يقع تحت حصر، والآراء منقسمة حولها انقسـاماً كبيراً . والرأي الصحيح هو الرأي الذي نتعلمه بأثره؛ أي أننا

* انظر بحث « دور الخافيـة » في ترجمتنا لكتاب « العقل والأرض » للمؤلف — المترجم —

نستطيع أن نعرف العيوب في واعية عصرنا بمراقبة الرجْع (= رد الفعل) الذي تستثيره من الخافية .

مثلما قلت لتوّي، إن المدّ الذي ارتفع في الخافية بعد الحرب العالمية الأولى انعكس في أحلام الأفراد، في هيئة رموز جماعية ميثولوجية عبّرت عن بدائيّة وعنف وشراسة ـــ باختصار، عن جميع قوى الظلام . عندما تطرأ مثل هذه الرموز على عدد كبير من الأفراد ولا يفهمونها، تبدأ بتجميع هؤلاء الأفراد بعضهم إلى بعض كما لو أن قوة مغناطيسية تجتذبهم، فيتشكل في ذلك جمع من الرعاع . سرعان ما نجد زعيمه في الفرد الذي عنده من المقاومة أقلّها، ومن الشعور بالمسؤولية أدْناهُ، ومن إرادة السلطة أعظمها، بسبب من نقصه . لسوف يطلق العنان لكل شيء جاهز للانفجار، ويلحقه الراع بقوة الهَيْل* التي لا تقاوم .

كنت راقبت الثورة الألمانية في أنبوب اختبار الفرد الألماني، إن صح التعبير، وكنت على علم تام بالأخطار الهائلة التي تنطوي عليها هذه الثورة عندما يتجمَّع مثل هؤلاء الأفراد الذين اختبرتهم بعضهم إلى بعض . لكنني يومئذٍ لم أكن أعلم إن كان في ألمانيا عدد من هؤلاء الناس كافٍ لأن يجعل من انفجار عام أمراً لا يمكن تجنّبه . مهما يكن من أمر، فقد كان بوسعي أن أتتبع عدداً لابأس به من الحالات وأراقب كيف تنطلق قوى الظلام وتنتشر في أنبوب اختبار الفرد . فقد كان بوسعي أن أرقب

* الهَيْل ترجمة لكلمة avalanche كما في « المغني الأكبر » .

هذه القوى وهي تقتحم حواجز الفرد الأخلاقية والذهنية وتجتاح عالمه الواعي . في أغلب الأحيـان كان ثمة معاناة رهيبة ودمار شديد . لكن عندما يكون الفرد قادراً على التمسك بقدر من العقل، أو على الاحتفاظ بروابط القربى البشرية، فإن نفس الفوضى التي تحكم العقل الواعي تُحدث في الخافية تعويضاً جديداً ينضمّ إلى الواعية . عندئذٍ تظهر رموز جديدة ذات طابع جماعي، لكنها تعكس قوى **النظام** هذه المرة . في هذه الرموز مقـاييس ونسب وترتيبـات متســاوقة، تعـبر عن نفسها في بنية رياضية وهندسيـة خاصـــة؛ تمثل نوعاً من النظام المحوري وتعرف باسـم **المنادل mandalas** . **أخشى ألاّ استطيع الدخول في شرح هذه المسائل التقانية العالية هنا، لكن مهما بدت غير مفهومة، يتعيّن عليّ أن أشير إليها إشارة عابرة لأنها تمثل وميض أمل، ونحن بأمس حاجة إلى الأمل في هذا الزمان الذي يتّسم بالانحلال والفوضى العمائية .**

الاختـلاط والفوضى العـالميان يعكسـان حالة مماثلة في عقل الفرد، ويعـوّض عن هذا الافتقـار إلى التوجّه، النماذج البدئيـة التنظيميـة التي تطلقها الخافية بما هي كائنة فيها . لكن يتعين عليّ هنا أيضاً أن أبيّن أن هذه الرموز إن لم تنضمّ إلى الواعية، فإن القوى التي تعبّر عنها تتراكم إلى درجة خطرة، تماماً كما فعلت قوى الدمار والفوضى قبل خمسة وعشرين عاماً . إن انضمام محتويات الخافية إلى الواعية لهو فعل تحقيق فردي، فعلُ فهْمٍ وتقييم أخلاقي . هو مهمة بالغة الصعوبة، إذ تتطلب درجة عالية من المسـؤوليـة الأخلاقية . وليس يستطيع أن يفعل ذلك إلا قلة قليلة من الناس؛ وهؤلاء ليسوا قادة سياسيين، بل قادة أخلاقيون للبشرية . على

مثل هؤلاء الأفراد يتوقف الحفاظ على الحضارة وزيادة نموّها؛ ذلك لأن واعية العامة من الناس لم تحرز تقدماً يذكر منذ الحرب العالمية الأولى . ما أصاب الغنى إلا عقولٌ مفكرة معينة، وقد أتيح لها أن توسع من أفقها الفكري والأخلاقي توسعة كبيرة، بفضل إدراكها لذلك المدى الواسع والطاغي الذي تتمتع به قوة الشر، وقابلية البشرية لأن تصبح أداة طيّعة في يده . أما الفرد العادي فلم يزل يراوح في مكانه عند نهاية الحرب العالمية الأولى . لذلك كان من الأمور البالغة الوضوح الا تستطيع الغالبية العظمى من الناس أن تنضم إلى قوى النظام . بل على العكس، إذ يحتمل جداً أن تتعدّى على الواعية وتأخذها على حين غرّة أخذاً عنيفاً، رغماً عن إرادتها . والأعراض على ذلك نشاهدها في كل مكان : التوتاليتارية ورقيق الدولة . قيمة الفرد وأهميته تتناقصان في سرعة، وحظّه من الاستماع إليه يتضاءل يوماً بعد يوم .

إن هذا السياق من التردّي لسوف يأخذ وقتاً طويلاً ولسوف يكون مؤلماً، وأخشى ألا يكون منه مناص . ومع ذلك لسوف يثبت في المدى الطويل أن هذا السياق هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها الاستعاضة عن خافية الإنسان المحزنة، طفوليتّة وضعفه الفردي، بإنسان مستقبلي يعلم أنه هو نفسه صانع قدره، وأن دولته هي خادمُهُ لا سيّدُهُ . لكن الإنسان لن يبلغ هذا المستوى إلا عندما يدرك أنه، من خلال خافيته، قد خسر كل حقوقه الأساسية التي طالما كافح من أجل الوصول إليها — أعني **حقوق الإنسان** . لقد أعطتنا ألمانيا مثالاً بالغ الدلالة على التطور السيكولوجي الذي نتحدث عنه . ففي ألمانيا أطلقتِ الحربُ العالميةُ الأولى قوى الشر

من عقلها، تماماً مثلما فجرّ الحربَ نفسَها تراكُمُ العامة غير الواعية وشهواتها العمياء . لقد كان أول الضحايا هو مَنْ كان يُسمّى « فريدنز كايزر » (= قيصر السلام)، ولم يكن يختلف عن هتلر حين عبّر عن تلك الشهوات الفوضوية غير القانونية التي قادتْهُ إلى تلك الحرب، وإلى الكارثة التي لم يكن منها مفرّ . لقد كانت الحرب العالمية الثانية تكراراً للسياق النفسي ذاته الذي أدّى إلى الحرب العالمية الأولى، لكن نطاقه كان أوسع بما لا نهاية له .

كما قلت، لقد كان انطلاق غرائز العامة من عقالها علامة تعويضية . ولم تكن هذه الحركة ممكنة إلا لأن حالة الوعي كانت في عزلة عن القوانين الطبيعية التي تنظم الوجود البشري . لقد كان من نتائج التصنيع أن اقتُلع عدد كبير من الناس من جذورهم وأُلْقي بهم كالقطعان في مراكز التجمع الواسعة . هذا الشكلُ الجديد من الوجود ــ سيكولوجيتّهُ القَبَلية واعتمادُه الاجتماعي على تقلب الأسواق والأجور ــ هذا الشكلُ من الوجود أنتج فرداً قلقاً، غير آمن، قابلاً للإيحاء . كان يعلم أن حياته تتوقف على قرار من مجالس الإدارة وأرباب الصناعة . وكان يعتقد، صحيحاً أو خطأً، أنهم مدفوعون بصفة أساسية بمصالحهم المالية . وكان يعلم أنه مهما اشتغل بوجدان فسوف يظل عُرْضةً لأن يقع ضحية في كل لحظة للتقلبات الاقتصادية التي لم يكن له قِبَلٌ بالتحكم فيها . ثم ليس عنده شيء آخر يمكنه أن يعتمد عليه . زد على ذلك أن نظام التعليم الأخلاقي والسياسي السائد في ألمانيا قد فعل كل ما بوسعه أن يبثّ في كل شخص روح الطاعة الغبيّة، مع الاعتقاد بأن كل شيء مرغوب فيه يجب

أن يأتي من فوق، من الذين يتبوّؤون بمرسوم إلهي قمة المواطن الملتزم بالقانون، الذين طغى على شعورهم بالمسؤولية الشخصية حسٌّ جامد بالواجب . لذلك لا عجب أن تكون ألمانيا تحديداً هي البلد الذي يقع فريسة السيكولوجية القَبَلية، على الرغم من أنها ليست الأمة الوحيدة التي هدّدها هذا الوباء الخطر . لقد امتد تأثير سيكولوجية القبيلة طولاً وعرضاً .

يعوض عن شعور الفرد بضعفه، بل بعد وجوده، انفجار شهوة إلى السلطة كانت غير معروفة حتى الآن . هذا الانفجار هو تمرّد من لا قوة له، وجَشَع من لا يشبع، وأكثرُ من يشعر به « الذين لا يملكون شيئاً » . بمثل هذه الوسائل الملتوية تجبر الخافية الإنسان على أن يعي نفسه . لسوء الحظ، لم يكن في واعية الفرد قيم من شأنها أن تتيح له أن يفهم الرجع (=رد الفعل) ويتحد به عندما يصل إلى واعيته . لم تكن تلقنه السلطات الفكرية العليا شيئاً غير المادية، ولم تكن الكنائس بقادرة على معالجة هذا الوضع الجديد؛ لم تكن تستطيع شيئاً غير الاحتجاج؛ وهذا ليس يجدي فتيلاً . وهكذا تدحرج الهيْل وغمر ألمانيا وأعطاها زعيمها الذي اختير لكي يكون أداة يتم بها دمار الأمة . لكن ماذا كانت نيّته الأصلية ؟ لقد حلم بـ « نظام جديد » . إننا نخطئ خطأً فادحاً إن اعتقدنا أنه لم يكن ينوي فعلاً خلق نظام عالمي من نوع ما . على العكس، لقد كان في أعماقه مدفوعاً بقوى النظام، التي أصبحت فاعلة فيه في اللحظة التي استحوذت فيها الشهوة والجشع على عقله الواعي استحواذاً تاماً . لقد كان هتلر داعية « نظام جديد »، وهذا هو السبب

الحقيقي الذي جعل كل ألماني يهيم به فعلاً . كان الألمان يريدون النظام، لكنهم ارتكبوا الخطيئة القاتلة عندما اختاروا الضحية الرئيسية للفوضى والشره الذي لا ضابط له لكي يكون زعيماً لهم . لقد ظل موقفهم الفردي بدون تغيير : كما أنهم كانوا شرهين إلى السلطة، كذلك كانوا شرهين إلى النظام . كان شأنهم في هذا كشأن سائر العالم؛ لم يفهموا أين يكمن معنى هتلر، وأنه كان يمثل شيئاً في كل فرد . لقد كان أَهْوَلَ تشخيص لجميع نقائص البشرية . كان أكثر الناس عجزاً وانعدامَ تكيّف ومسؤولية ومرضاً نفسياً، ممتلئاً تخيلات طفولية فارغة، لكنه ملعون بحدس حادّ يتمتع به جُرَذ أو ابن أزقّة . كان يمثل **الظلّ**، أي الجانب المنحطّ من كل شخص، بدرجة طاغية، وكان هذا سبباً آخر في هيام الألمان به .

لكن ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا ؟ لقد كان كل ألماني يرى ظلّه، خطره الأسوأ، في هتلر . قدر كل إنسان أن يعي ظله ويتعلّم كيف يتعامل معه . لكن، هل كان من الممكن أن نتوقع من الألمان أن يفهموا هذا عندما لا يستطيع أحد في العالم أن يفهم هذه الحقيقة البسيطة ؟ لن يبلغ العالم حالة من النظام إلا إذا اعترف بهذه الحقيقة عموماً . في نفس الوقت، نتلهّى بتقديم جميع أنواع الأسباب الخارجية والثانوية نفسر بها تعذّر بلوغ هذه الحقيقة، وان كنا نعلم حق العلم أن الأحوال تتوقف إلى حد كبير على الطريقة التي نأخذها بها . فلو اعتقد السويسريون الفرنسيون، مثلاً، أن السويسريين الألمان كلهم شياطين، لكُنّا شهدنا أعظم حرب أهلية عرفها التاريخ، ولا استطعنا أن نكشف عن أكثر الأسباب الاقتصادية إقناعاً نبرهن بها أن وقوع هذه الحرب كان أمراً لا

يمكن تجنّبه . حسن ـــ ولكننا لا نفعل؛ لأننا تعلمنا منذ أكثر من أربعمائة سنة . لقد انتهينا إلى تجنب الحروب الخارجية، وعدنا إلى بلدنا ومعنا روح القتال، حيث شيدنا « الديمقراطية الكاملة »، ورحنا نصب غرائزنا الحربية في أقنية منازعات أهلية أسميناها « الحياة السياسية » : يحارب بعضنا بعضاً في حدود القانون والدستور، ونميل إلى الاعتقاد بأن الديمقراطية حالة مزمنة من حرب أهلية مُلطّفة . فنحن لسنا في سلام مع أنفسنا : على العكس، يكره بعضنا بعضاً، ويحارب بعضنا بعضاً، لأننا نجحنا في توجيه الحرب نحو الداخل . وما سلوكنا الخارجي المسالم إلا لحماية منازعاتنا الداخلية من تدخل المتطفلين الأجانب الذين قد يزعجوننا . لقد نجحنا حتى الآن، لكننا مازلنا بعيدين عن الهدف الأخير . إذ مازال في دمنا أعداء، ولم نستطع حتى الآن أن نوجه جميع اختلافاتنا السياسية نحو الداخل . مازلنا نعمل تحت تأثير وهم غير مأمون لعاقبة هو أننا يجب أن نكون في سلام مع أنفسنا . مع ذلك سرعان ما تصل حالة الحرب الملطّفة التي نحياها إلى نهايتها لو استطاع كلٌّ منا أن يرى ظله ويبدأ النضال الوحيد الذي يستحق أن نبدأه فعلاً : نضال شهوة السلطة الطاغية الآتي إلينا من الظل . إن لدينا في سويسرا نظاماً اجتماعياً مقبولاً لأننا نتقاتل فيما بيننا . وربما كان نظامنا أكمل لو أن كلاً منا استطاع أن يوجّه عدوانيته إلى الداخل، إلى داخل نفسه . لسوء الحظ، إن ثقافتنا الدينية تمنعنا من فعل ذلك، بوعودها الزائفة بسلام داخلي فوري . قد يأتينا السلام في النهاية، لكنه لن يأتي إلا بعد أن يفقد النصر والهزيمة معناهما . ماذا كان يقصد السيد المسيح عندما قال : « ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً » ؟.

بمقدار ما نستطيع إقامة ديمقراطية حقيقية ـــ اقتتال مشروط فيما بيننا، إنْ جماعياً وإنْ فردياً ـــ نحقق عوامل النظام، لأن العيش في ظروف نظامية يصبح عندئذٍ ضرورياً بصفة مطلقة . في الديمقراطية لا تستطيع أن توفر المضاعفات المزعجة التي تنجم عن التدخل الخارجي . كيف يمكنك أن تدير حرباً أهلية إدارة مناسبة عندما تكون غرضاً لهجوم يأتيك من الخارج ؟ من ناحية ثانية، عندما تكون على خلاف شديد مع نفسك، فإنك ترحب بالذين يحيطون بك مؤملاً أن ينتصروا لقضيتك، وعلى هذا الاعتبار تكون مستعداً لأن تكون ودوداً وأرْيَحيّاً معهم . ولكنك، بتهذيب، تتجنب الناس الذين يهبّون لمساعدتك ويخلّصونك من متاعبك . لقد تعلمنا، نحن علماء النفس، من خلال خبرة طويلة وأليمة، أنك تسلب الإنسان خير موارده عندما تساعده على التخلص من عقده . كل ما تستطيع فعله أن تجعله عالماً بها علماً كافياً، وأن يبدأ صراعاً واعياً مع نفسه . بهذه الطريقة تصبح العقدة بؤرة حياة . كل شيء يختفي من مخزونك النفسي قابل لأن يأتيك في هيئة جارٍ معادٍ لك . ولا شك أنه من الخير أن تعرف أن ألدّ أعدائك قابع هناك في أعماق نفسك . لا يمكن استئصال غرائز الإنسان القتالية؛ لذلك لا يمكن تصور حالة من السلام المطلق . الديمقراطية الحقيقية مؤسسة نفسية رفيعة تأخذ في حسبانها طبيعة الإنسان كما هي وتترك هوامش من أجل ضرورة الصراع داخل الحدود القومية .

لو قارنتم الآن الحالة العقلية الراهنة عند الألمان بالحجة التي أدْليْتُ بها الآن، إذن لأدركتم عظم المهمة التي يُواجَهُ بها العالم . ليس بوسعنا أن

نأمل من عامة الألمان الذين تحطمت معنوياتهم أن يدركوا أهمية مثل هذه الحقائق السيكولوجية، مهما كانت بسيطة . لكن الديمقراطيات الغربية العظمى عندها فرصة أفضل، مادامت تستطيع أن تظل في منأى عن هذه الحروب التي تُغْريها دائماً بالاعتقاد بأعداء خارجيين وأن السلام الداخلي أمرٌ مرغوب فيه . الميل الظاهر لدى الديمقراطيات الغربية إلى الشقاق الداخلي هو نفس الشيء الذي قد يؤدي بها إلى طريق حافل بالأمل . لكنني أخشى أن تعمد القوى التي تؤمن بالاتجاه المعاكس إلى إرجاء هذا الأمل بتدمير الفرد وتقوية الخرافة التي نسميها **الدولة** . إن عالم النفس يؤمن إيماناً لا يتزعزع بالفرد لأنه وحده يحمل العقل والحياة . المجتمع والدولة يستمدّان صفتهما من الحالة العقلية الموجودة عند الفرد، لأنهما مكوَّنان من الأفراد، ومن الطريقة التي يُنَظَّمون بها . على الرغم من وضوح هذه الحقيقة، إلا أنها مازالت غير سارية في الرأي العام إلى الحد الذي يحمل الناس على الامتناع عن استخدام كلمة « الدولة »، كما لو أنها تشير إلى نوع من فرد أعلى **Super_individual** يتمتع بقوى وموارد لا تنفذ . **يُتَوَقَّع من الدولة في هذه الأيام أن تنجز ما لا يتوقعه أحد أن ينجزه الفرد .** إن الانحدار الخطر الذي يفضي نزولاً إلى سيكولوجية القبيلة يبدأ بهذا التفكير بالأعداد الكبيرة، بلغة المنظمات الشديدة القوة، حيث يأخذ الفرد بالتناقص حتى يبلغ مرتبة الصفر . كل شيء يتجاوز حجماً بشرياً معيناً فإنما يستدعي قوى غير بشرية كامنة في خافية الإنسان . تُسْتَدْعى شياطين التوتاليتارية، بدلاً من التحقق من أن كل الذي أمكن إنجازه هو خطوة بالغة الضآلة إلى الأمام في الطبيعة الأخلاقية عند الفرد . القوة

التدميرية الكامنة في أسلحتنا فاقت كل مقياس، وهذا يفرض على البشرية مسـألة سيكولوجيـة : هل الحالة العقـلية والأخلاقية عند الناس الذين يملكون قرار استعمال هذه الأسلحة هي في مستوى الآثار الممكنة ؟

خاتمة لـ « مقالات في أحداث معاصرة »*

طرحتْ ألمانيا على العالم مشكلة ضخمة، وهي مشكلة يجب النظر إليهـا من زوايا كثيرة، ليس الجانب السيكولوجي منها إلا واحداً من وجوهها الكثيرة . وأنا، كعالم نفسي، أميل طبعاً إلى الاعتقاد بأن الجانب النفسي ذو أهمية كبيرة، لكنني أرى أن أترك للقارئ أن يكوّن رأياً خاصاً به حول هذه النقطة . إن اهتمامي المهني بشؤون سيكولوجية الخافية غالباً ما يُظهر لي أشياء كانت لم تزل بَعْدُ خبيئة في الخافية لكنها موجودة في حالة جنينيّة، وهذه المحتويات على أهبة الاستعداد لاقتحام الواعية قبل أن يكون لدى الفرد فكرة عما تدّخره له نفسه بزمن طويل . قبل حوالي ثلاثين عاماً كان لديّ فكرة غامضة عما كان يعتمل في الخافية، إذ كان من مرضاي ألماناً جاؤوا لستشارتي . في عام ١٩١٨ كتبت أقول :

وفيما تفقد النظرة المسيحية للعالم سلطانها، يزداد استعداد « الوحش الأشقر »، وهو يطوف مهدداً في أنحاء سراديب السجن، لكي ينفجر بالآثار المدمرة في كل لحظة**.

---

* كان أول نشر لهذه الخاتمة في زوريخ عام ١٩٤٦ .

** انظر مقال « دور الخافية » في كتاب للمؤلف بعنوان « العقل والأرض » بترجمتنا ــ المترجم .

لا نحتاج إلى بذل كبير جهد حتى نعرف من هو المقصود بـ « الوحش الأشقر » . غير أنني ما كنت أقصر « الوحش الأشقر » على ألمانيا، بل كنت أعني بـه الأوروبي البدائي عموماً، الذي كان يصعد تدريجيـاً إلى السطح نتيجة لتزايد التنظيم المجموعي . في نفس المقال مضيت أقول :

حتى ارتياب البدائي في القبيلة المجاورة قد عاد إلينا ثانية في هذه الحرب وَرِماً إلى نسب هائلة، وكنا اعتقدنا أننا كبرنا عنه منذ زمن بعيد بفضـل منظماتنا العالمية . لم تعد المسـألة مسـألة تحريق القرية المجاورة، أو دحرجة بضعة رؤوس : مدن بكاملها تباد عن بكرة أبيها، وملايين من الناس تُقتّل وتذبّح . الأمم العدوّة تسـلب كل حق من احترام، وأخطاؤنا الخاصة بنا تظهر في الآخرين مجسّمة بصورة هائلة . أين هي العقـول الفـائقـة، القـادرة على التفكـير، اليوم ؟ إن كانت موجودة أصلاً، فلا أحد يعيرها التفاتاً . بدلاً من ذلك استقتال عام، وهلاك عالمي يقف الفرد تجاه هيمنته الطاغية عاجزاً عن الدفاع عن نفسه . ومع ذلك فإن هذه الظاهرة الجماعية هي غلطة الفرد أيضاً، لأن الأمم مكوّنة من الأفراد . لذلك كان على الفرد أن يبحث عن الوسيلة التي يمكنه بها الردّ على الشرّ ؟ موقفنا العقلاني يؤدي بنا إلى الإيمـان بـأننـا نستطيع أن نفعـل العجـائب عن طريق المنظمـات والتشريعات العالمية وغير ذلك من الوسائل . لكن في الحقيقة ما من شيء يمكنه أن يحدث تجديداً في روح الأمم مثلما يحدثه تغيير في روح الفرد . كل شيء يبدأ بالفرد . هناك لاهوتيون وإنسانيوّن طيّبو النية

يريدون أن يكسروا مبدأ القوة في الآخرين . أوْلى بهم أن يبدؤوا بكسره في نفوسهم . عندئذٍ يصبح الشيء مصدَّقاً*.

إبّان الحرب العالمية الأولى، كتبت مقالاً كان أول ظهور له باللغة الفرنسية، ثم وسّعْتُهُ فيما بعد في كتاب ظهر باللغة الألمانية في ١٩٢٨**. قلت في صدد سيكولوجية القبيلة **Mass Psychology** :

من الحقائق المعروفة أن أخلاقية مجتمع ما تتناسب عكساً مع حجمه؛ كلما تعاظم تجمع الأفراد، تضاءلت معه العوامل الفردية والأخلاقية، وهي العوامل التي تتوقف كلياً على الحس الأخلاقي لدى الفرد وعلى الحرية الضرورية له . من هنا كان كل إنسان، بمعنى ما، أسوأ لاشعورياً عندما يكون في جماعة منه عندما يعمل منفرداً؛ لأنه عندما يكون محمولاً من قبل المجتمع وإلى ذلك الحد الذي يكون متحرراً فيه من مسؤوليته الفردية . كل جماعة كبيرة مؤلفة من أشخاص يبعثون على الإعجاب، يكون لديها من الأخلاق والذكاء ما لدى كل حيوان يتصف بالشراسة والغباء وصعوبة المراس . وكلما تضخمت المنظمة، كانت لا أخلاقيتها وغباوتها العمياء أمراً لا مناص منه . والمجتمع، بحكم توكيده تلقائياً على الصفات الجماعية في ممثليه الفرديين، يضع الأوّلية على المتوسط، على كل شيء يرضى أن يحيا حياة سهلة غير مسؤولة . أما الفردية فلا بدّ من سقوْطها إلى الحائط .

---

* نفس المرجع السابق .

** **Tow Essays on Analytical Psychology**

... لا أخلاق بلا حرية . إن إعجابنا بالمنظمات الكبرى يتضاءل عندما نكتشف ذلك الجانب الاخر من العجب : التراكم الهائل والتوكيد على ما هو بدائي في الإنسان، والدمار الذي لابدّ منه لفرديّته لصالح هُوْلةٍ تكوّنها في الواقع كل منظمة كبيرة . إن إنسان اليوم الذي يشبه من بعض الوجوه المثلَ الأعلى الجماعي قد أحال قلبه إلى وكر للقتلة، كما يمكن إثبات ذلك بتحليل خافيته، حتى لو كان هو نفسه لا تزعجه هذه الحقيقة اقل إزعاج، ما دام معظم أترابه يؤمنون إيماناً لا يتزعزع بالأخلاقية العالية التي تتمثل في منظّمتهم الاجتماعية .

في نفس المقال أتيت على ذكر حقيقة تكاد أن تكون مبتذلة : « الخير، لأنه كذلك، يحتوي على بذرة الشر، ولا يأتي منها غير الخير » . أريد أن ألقي توكيد على هذه الحقيقة، لأنها وضعتني دائماً في حالة حذر كلما تعيّن عليّ أن أبدي رأياً في كل تجلّ خاص للخافية . إن محتويات الخافية، النماذج البدئية، التي نحن معنيّون بها في كل طروء لظاهرات القبيلة النفسية، هي دائماً مزدوجة القطب : إن لها جانباً إيجابياً مثلما أن لها جانبياً سلبياً . وكلما ظهر نموذج بدْئي استدقّت الأشياء، واستحال التنبؤ بالدور الذي قد تتخذه . الأصل أن يتوقف هذا الدور على الطريقة التي تردّ بها الخافية على الوضع القائم . في أثناء تجلٍّ جماعي للنماذج البدئية هناك دائماً خطر كبير من حركة قَبَلية، ولا يمكن تجنب وقوع كارثة إلا إذا أمكن التصدّي لأثر النموذج البدْئي وتمثلته أكثرية كافية من الأفراد . وفي أقل الحدود الدنيا يجب أن يتوفر عدد معين من الأفراد لايزالون قادرين على جعل تأثيرهم ملموساً .

في شباط من عام ١٩٣٣، قلت في محاضرة ألقيتها في كولونيا وإسّن :

الاتجاه الفرداني الحاسم في هذه التطورات الأخيرة أخذ يُوازنُهُ الاتجاهُ التعويضي المعاكس نحو الإنسان الجمْعي، الذي يبلغ سلطانُهُ في الوقت الحاضر ما يبلغ وزنُ الكتل البشرية . لذلك لا عجب أن يوجد اليوم شعور بالكارثة في الهواء كما لو أن « هَيْلاً » انفجر ولا شيء يستطيع إيقافه . الإنسان الجمعي يهدد بخنق الإنسان الفرد، الذي يتوقف على شعوره بالمسؤولية كل شيء ذي قيمة في الحياة البشرية في نهاية المطاف . الكتل البشرية، بهذه الصفة، دائماً مغفلة ودائماً غير مسؤولة . مايُسَمَّوْن بالزعماء هم الأعراض التي لا مفر منها على حركة هذه الكتل . أما الزعماء الحقيقيون للبشرية فهم دائماً قادرون على التفكر الذاتي، الذين يلقون على كاهلهم هم على الأقل ذلك العبء الميت الذي تمثله الكتل، ويقفون واعين في معزل عن الزخم الأعمى في حركة الكتلة .

لكن من يستطيع مقاومة قوة الجذب هذه التي تلتهم كل شيء، عندما يتأبط كل أحد الذي يليه، وكل أحد يجرّ الآخر معه ؟ لا أحد غير الذي يتجذّر ثابتاً لا في العالم الخارجي وحسب، وإنما في العالم الداخلي أيضاً .

صغير وخفيّ هو الطريق الذي يفضي إلى الداخل، وتعترض المدخل حواجز لا حصر لها : انحيازات، مسلّمات خاطئة، مخاوف، دائماً نرغب في الاستماع إلى خطط سياسية واقتصادية عظيمة، نفس الأشياء التي أرْستْ كل أمة في مستنقع . لذلك يبدو أمراً غريباً أن

يتكلم كل أحد عن أبواب سرّية وأحلام وعالم داخلي . ما علاقة هذه المثالية التافهة بالبرامج الاقتصادية الضخمة، بما يُسمّى مشكلات الواقع ؟

إلا أنني لا أخاطب أمماً، لا أخاطب إلا قلة من الأفراد، لا تهبط عليهم القيم الثقافية كما يهبط المنّ من السماء، بل تُخلق بأيدي أفراد ـــ غني عن البيان أن نقول هذا . إن كانت الأشياء تمضي خاطئة في العالم، فهذا يعني أن شيئاً خاطئاً موجود في الفرد، شيئاً خاطئاً موجود فيّ . لذلك إن كنت ذا حس بالمسؤولية أضع نفسي في المقدمة . من أجل هذا أحتاج ـــ ما دامت السلطة في الخارج لم تعد تعني لي شيئاً ـــ لعلّي أؤسس نفسي ثابتاً على الحقائق الأزلية، حقائق النفس البشرية*.

في محاضرات « تارّي »، وهي المحاضرات الثلاث التي ألقيتها عام ١٩٣٧ في جامعة « يال » بالولايات المتحدة، قلت :

فنحن غير واثقين أبداً من أن فكرة جديدة لن تستولي علينا، أو على جيراننا . وأننا لنعلم، من التاريخ المعاصر كما من التاريخ القديم، ما قد تكون عليه مثل هذه الأفكار من غرابة، أو من شذوذ أحياناً، لا يقبل بها كل إنسان . ولعل النتيجة هي أن يُحرَّق جميع المنشقّين أحياء، أو تقطّع رؤوسهم، أو يُصَفَّوْن بالجملة بأحدث المدافع الرشاشة

---

* انظر بحث « معنى علم النفس للإنسان الحديث » من كتاب للمؤلف بعنوان « العقل والأرض » بترجمتنا ـــ المترجم .

ـــ هذا بصرف النظر عما إذا كانوا على حق إم لا . لا يمكننا الركون إلى القول بأن مثل هذه الأمور ترجع إلى الماضي البعيد . بل يبدو أنها ـــ ويا لسوء الحظ ـــ لا ترجع إلى الحاضر وحسب، بل تمتد إلى المستقبل أيضاً . « الإنسان ذئب بشري »، هذه حقيقة محزنة لكنها خالدة مع ذلك . والحق أن هناك سبباً قوياً وراء خوف الإنسان من القوى الخفية التي تقبع في خافيته . لكن، من حسن الحظ، أننا لا نشعر بهذه القوى لأنها لا تظهر أبداً في معاملاتنا الشخصية في الظروف العادية . لكن هذه القوى ما تلبث أن تظهر إذا تجمع الناس وتجمهروا، إذّاك تنطلق القوى المحركة للإنسان الجماعي من عقالها ـــ بهائم أو شياطين كانت راقدة في كل شخص حتى يعود جزءاً من السواد . الإنسان في الجمهور ينحدر، لاشعورياً، إلى مستوى أخلاقي وفكري مُتَدَنٍّ، إلى ذلك المستوى الذي يوجد دائماً هناك تحت عتبة الواعية، قائماً على أهبة الاستعداد للتقحّم ما إن يحرّضه محرّض عبر تشكله في الجمهور ...

إن تغيير الشخصية الذي يحدثه انفلات القوى الجماعية ليبعث على الدهشة . فقد يتحول شخص يتصف بالدماثة والعقل إلى مهووس أو حيوان متوحش . ونحن نميل دائماً إلى إلقاء اللوم على الظروف الخارجية، لكن لا شيء ينفجر فينا إن لم يكن له وجود فينا أصلاً . والحق أننا نعيش دائماً على شفا بركان، وليس لدينا وسيلة نحمي بها أنفسنا، على حد ما نعلم، من انفجار محتمل يدمر كل شخص يطاله . لاشك أنه لأمر حسن أن ندعو إلى العقل والحس السليم،

لكن ماذا لو كان لديك بيمارستان مجانين بدلاً من نظّارة أو جمع غفير في حالة هياج جماعي ؟ لا فرق كبير بين الحالتين لأن المجنون والدهماء كليهما تحركه قوى طاغية، غير شخصية ...

ها نحن أولاً بإزاء مشهد مذهل : دول تدّعي لنفسها ما قد ادّعته الثيوقراطية في قديم الزمان؛ أعني بذلك الأنظمة التوتاليتارية وما يرافقها من قمع لحرية الرأي . وأناس يحزّون حناجر بعضهم بعضاً انتصاراً لنظريات صبيانية تتعلق بكيفية إقامة فردوس على الأرض . بعد هذا لا يصعب علينا كثيراً أن نرى قوى العالم السفلي ــ بَلْهَ الجحيم ــ التي كان مُرْتَجاً عليها في شيء من الإحكام، وكان يمكن الإفادة منها في تشييد صرْح عقلي شامخ ــ لا يصعب علينا ان نرى هذه القوى وقد راحت تخلق، أو تحاول أن تخلق، سوقاً للنخاسة أو سجناً ترعاه الحكومات، خالياً من كل سحر روحي أو عقلي . في هذه الأيام، لم يعودوا قلّةً من باتوا مقتنعين بأن العقل البشري وحده غير قادر على القيام بالمهمة الرامية إلى التحكم بالبركان .

انظروا إلى جميع ضروب الهمجية التي لا تُصدّق التي تحدث في عالمنا الذي نسميه بالمتمدن، وهي جميعاً ترتد إلى الكائنات البشرية وحالتهم العقلية . انظروا إلى وسائل الدمار الشيطانية ! إنما اخترعها أناس مهذبون تماماً، لا يؤذون أحداً، أناس متّزنون، ومواطنون محترمون نتمنى جميعاً أن نكون مثلهم . لكن، عندما ينفجر ذلك كله، ويكون سبباً في اندلاع جحيم من الخراب لا يوصف، لا يبدو أن أحداً

مسؤول عنه . يحدث هذا بكل بساطة، لكنه مع ذلك من صنع الإنسان .

لكن، لما كان كلنا مقتنعاً قناعة عمياء أن الإنسان ما هو غير واعيته البالغة التواضع، واعيته العديمة الخطر، التي تقوم بوظائفها على نحو دقيق، وتكسب معاشاً معتدلاً، كان كلّنا يجهل هذا الجمهور، المنظم تنظيماً عقلياً، الذي ندعوه دولة أو أمة، إنما تحكمه قوى غير شخصية في الظاهر، قوة لا تُدْرك لكنها مخيفة، قوة لا يصدّها أحد، ولا يحدّها شيء، هذه القوة الرهيبة غالباً ما نفسرها بأنها الخوف من الأمة المجاورة، التي نزعم أن شيطاناً ماردًا قد سيطر عليها . ولما كان كلنا يجهل مَأْتى السيطرة ومقدارها، كان من أيسر اليسر أن « نُسْقط » وضعيتنا الخاصة على جارنا حتى ليغدوا من واجبنا المقدس أن نحوز على أضخم المدافع وعلى أفتك الغازات سُمّاً . وأقبح من ذلك كله أن نعتقد بأننا على حق تماماً . في المصحّات العقلية حقيقة معروفة جداً : أن المرضى يكونون أشد خطراً في حالات الخوف منهم في حالات الغضب أو الحقد*.

في إبّان الحرب العالمية الثانية، وكان ذلك في مطلع عام ١٩٤٠ نشرت الترجمة الألمانية لهذه المحاضرات، وقد كان نشرها في وقت أمكن فيه أن تدخل ألمانيا، لكنها لم تلبث حتى مُنعت من التداول بسبب المقاطع التي اقتبسناها توّاً، وأُدرج اسمي في القائمة السوداء، أصبحت « امرءاً

---

* انظر « الدين في ضوء علم النفس » للمؤلف بترجمتنا ــ المترجم .

مشطوباً » عليه . وبعد غزو فرنسا أتلف الغستابو جميع الطبعات الفرنسية التي استطاع أن يضع يده عليها .

لقد ألقي اللوم علي في كثير من الأوساط لأنني أبحث لنفسي أن أتكلم عن « مرض نفسي » ألماني . لقد كنت — ولا أزال — أرى أن الحركات القَبَلية السياسية في زماننا هي أوبئة نفسية . بعبارة أخرى، اختلالات عقلية تصيب القبيلة . فهذه الحركات، كما تدل على ذلك مصاحباتُها غير الإنسانية، ظاهرات عقلية شاذة، وأنا أرفض اعتبارها أشياء سويّة، ناهيك عن طلائها بالأبيض لكي تبدو أخطاء يُلتمس لها العُذر . القتل هو القتل، وكَوْن الأمة الألمانية بكاملها ألقت نفسها بكل ما أوتيت من قوة في أشنع حرب عدوانية عرفها التاريخ جريمة لا تُغتفَر . صحيح أن أناساً كثيرين وقفوا ضدها، لكنهم كانوا أقلية ضئيلة . إن سلوك الألمان عموماً سلوك شاذ؛ ولو لم يكن الأمر كذلك لكان علينا منذ زمن بعيد أن نعتاد النظر إلى هذا النوع من الحروب على أنه الحالة السويّة للأشياء .

طبعاً، هناك أسباب كثيرة — سياسية واجتماعية واقتصادية وتاريخية — تسوق الألمان إلى الحرب، تماماً كما توجد أسباب كثيرة في حالة القتل الجماعي، لكل قاتل دوافع كافية تحفزه على القتل، وإلا لم تُرتكَب الجريمة أصلاً . ولذلك وُجد شيء اسمه علم النفس الجنائي . لقد كانت ألمانيا تعاني من خلل عقلي قَبَلي كان قميناً لأن يقودها إلى الجريمة . لكن ما من **خلل عقلي ينشأ من فراغ؛ إنه دائماً نتيجة لاستعداد سابق كان موجوداً**

مدة طويلة، ويمكننا أن ندعوه النُّقاص ذا المنشأ النفسي* PSYCHOPATHIC INFERIORITY لكل أمة سيكولوجيتها الخاصة، وتبعاً لذلك النوع الخاص بها من المرض النفسي . وهذا المرض يتكون من الملامح الشاذة، أظهرها قابلية الإيحاء التي تؤثر في الأمة بأسرها . لا شك أن لقابلية الإيحاء هذه أسبابها الخاصة بها هي أيضاً، وإلا ما كانت وُجدت . لكن وجود الأسباب لا يذهب بالفعل ولا بصفته . توجد أسباب كثيرة جداً للجريمة والجنون كليهما، لكننا لا نرسل المجرمين والمجانين، بناء على هذا الاعتبار، إلى شاطئ البحر للاستشفاء .

بودي أن أشير إلى أن فكرة التكلم عن الجنون القَبَلي لم تطرأ عليّ فجأة بعد أيار ١٩٤٥؛ كنت فعلت ذلك قبل هذا التاريخ بمدة طويلة وحذّرت من هذا الخطر الهائل، لا مرة واحدة بل مرّات كثيرة . فقد كتبت، في عام ١٩١٦ وكان ذلك قبل أن تدخل الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى، كتبت أقول :

هل الحرب الراهنة حرب اقتصاديات ؟ إن هذا منطلق « عملي » أميركي حيادي لا يأخذ بعين الاعتبار الدماء والدموع والأفعال

* المرض النفسي الناشئ عن عقدة النقص، وقد صُغنا المرض النفسي على وزن « فُعال » قياساً على الأمراض الجسمانية ــ المترجم ــ

الشائنة التي لم يسبق لها مثيل ولا الآلام العظيمة، ويتجاهل بالمرة أن هذه الحرب وباء جنوني فعلاً* .

ما إن تجد هذه الوظيفة (غير العقلية) نفسها في الخافية حتى تخلق خراباً لا يتوقف، مثل مرض عُضال لا يمكن استئصال بؤرته لأنها لا تُرى . عندئذٍ يجد الفرد والأمة نفسيهما مضطرين إلى أن يعيشا غير المعقول وأن يمارساه، حتى أنهما يمحضان أعلى مثلهما وأفضل ذكائهما للتعبير عن جنونه في أكمل شكل** .

في محاضرة ألقيتها في « الجمعية البريطانية للبحث السيكولوجي »، في عام ١٩١٩ قلت :

لئن كان مقدراً لهذا التنشيط (للخافية الجماعية) أن يأتي على جميع الآمال والتوقعات، فإن الخطر الذي ينشأ عنه هو أن تحل الخافية محل الواقع الواعي . مثل هذه الحالة مروّعة . وإننا لنرى فعلاً شيئاً من هذا القبيل في العقلية الروسية والألمانية . إن انفجار الشهوات العنيفة والتخيلات المستحيلة في الطبقات الدنيا من الناس مماثل للانفجار الآتي من الطبقات الدنيا في خافية الفرد*** .

في عام ١٩٢٧، أعربت عن نفسي كما يلي :

الأديان القديمة، وما فيها من رموز رفيعة ومضحكة، رحمانية

---

* In Collected Papers on Analytical Psychology (1917) p.416 .

** Bt Collected Papers, p.432 .

*** The Psychologied Foundations of Belief in Spirits .

وشيطانية، لم تهبط من الفراغ، بل وُلدت من هذه النفس البشرية التي تقيم فينا في هذه اللحظة . جميع هذه الأشياء تعيش فينا في هيئتها الأولى، وقد تنفجر بقوّتها التدميرية في كل لحظة تحت ستار الإيحاءات القبلية التي يقف الفرد حيالها أعزل من السلاح . إن آلهتنا المخيفة لم تغير سوى أسمائها : لقد باتت الآن تضبط إيقاعاتها على المذاهب الفلسفية والإيديولوجية . أو هل يجرؤ أحد على الادعاء بأن الحرب العالمية أو البلشفية كانت اختراعاً حاذقاً ؟ إننا نعيش خارجياً في عالم قد تغوص فيه قارّة بكاملها في كل لحظة، كذلك نعيش داخلياً في عالم قد يحدث فيه كل شيء مماثل في كل لحظة أيضاً، وإن كان في هيئة فكرة، ولكنها لا تقل خطراً ولا تهديداً بسبب ذلك . إن إخفاقنا في التكيف مع العالم الداخلي إهمال تترتب عليه نتائج خطيرة كالتي تترتب على الجهل والغباء في العالم الخارجي . إنهم، على كل حال، فئة قليلة من بني البشر، يعيشون بصفة رئيسية فوق شبه جزيرة آسيا الكثيفة السكان المشكوكة في قلب المحيط الأطلسي، ويسمون أنفسهم « مثقفين »، لأنهم يفتقرون إلى كل اتصال لهم بالطبيعة، قد ضربوا على فكرة أن الدين نوع خاص من الاضطراب العقلي يرمي إلى غاية لا تُعرف . ولو نظرنا إلى هذه الفئة من مسافة مأمونة، مثلاً من أفريقيا الوسطى أو التيبت، لبدت لنا وكأنها أسقطت اضطراباتها العقلية الخافية على الأمم التي مازالت تحتفظ بفطرة سليمة* .

* Two Essays on Analytical Psychology, Par. 326 .

في عام ١٩٢٨، كتبت أقول إن « الشخص السويّ ... يعبر عن اضطراباته النفسية اجتماعياً وسياسياً، في هيئة اختلالات عقلية قَبلية كالحروب والثورات » . وبعد عام، بيّنت في « سر الزهرة الذهبية » الذي نشرته بالتعاون مع ريتشارد ويلهلم، ما يلي : لو أنكرنا وجود الجمل المستقلة، وتصورنا أننا تخلصنا منها بنقد اسمها، لم نستطع أن نفهم أثرها الذي يظل يفعل مع ذلك، ولم يعد بإمكان الواعية أن تتمثلها، ولأصبحت عامل اضطراب لا تفسير له، ولرحنا في النهاية نفترض الاّ بدّ من وجوده في مكان أو آخر خارج أنفسنا . بهذه الطريقة، ينتج إسقاط عن الجمل المنفصلة المستقلة، ويخلق في نفس الوقت وضع خطر، لأن آثار القلق باتت تُعزى الآن إلى نيّة سيئة من خارج أنفسنا لا يمكن أن نجدها بالطبع إلا لدى جيراننا ــ على الضفة الأخرى من النهر . وهذا يؤدي إلى ضلال جمعي، وإلى « حوادث » وحروب وثورات ــ بكلمة واحدة، إلى جنون جماعي مخرّب .

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٣٢، في السنة التي تقرر فيها مصير ألمانيا، ألقيت محاضرة في « الجمعية الثقافية » في فيينّا، أحب أن أقتبس منها المقطع التالي :

الكوارث الهائلة التي تتهددنا اليوم ليست حوادث فيزيائية أو بيولوجية، بل حوادث نفسية . نحن مهددون إلى درجة مخيفة بالحروب والثورات التي ليست إلا أوبئة نفسية . في أيّ لحظة يمكن أن يُضرَب عدة ملايين البشر بنوع جديد من الجنون، وعندئذٍ نكتوي بنار حرب عالمية أخرى أو ثورة مدمرة بدلاً من الوقوع تحت رحمة وحوش

ضارية وزلازل وانهيارات أرضية وفيضانات جائحة، يُقصفُ الإنسان الحديث بالقوى المدمرة الموجودة في داخل نفسه . هذه هي « القوة العالمية » التي تفوق كل قوة أخرى على الأرض . إن عصر التنوير، الذي جرد الطبيعة والمؤسسات البشرية من الآلهة، قد تغاضى عن رؤية إله الرعب الذي يسكن نفس الإنسان، إن كان لمخافة الله من مسوّغ، فإنها لا تجد هذا المسوّغ كما تجده حيال القوة الطاغية التي تتمتع بها النفس (سايكي) .

لكن، في كل هذا الكثير من التجريد . كل منا يعلم أن العقل، هذا المغرور الذكي، يستطيع أن يطرح المسألة بهذه الطريقة أو بأية طريقة تروق له . وإنه لأمر مختلف جداً عندما تواجِهُ النفسُ، بما هي حقيقة موضوعية، صلبة كالغرانيت، ثقيلة كالرصاص، عندما تواجه إنساناً كخبرة داخلية، وتخاطبه بصوت مسموع قائلة له : « هذا ما سوف تفعله وما يجب عليك أن تفعله » . عندئذٍ يشعر أنه مدعوّ، كما يفعل الجمع حين تنشب حرب أو تندلع ثورة أو أي جنون آخر . إنه ليس للا شيء يصرخ عصرنا باحثاً عن شخصية فادية، شخصية يمكنها أن تتحرر من قبضة القبيلة وتنجّي نفسها على الأقل، تضيء منارة أمل للآخرين، معلنة أنه يوجد على الأقل شخص واحد قد حالفه التوفيق في تخليص نفسه (انتزاع نفسه) من تلك المواحدة القاتلة مع النفس القبلية . ذلك أن القبيلة، بسبب من غياب وعيها، ليس لها حرية اختيار، ولذلك تجري فيها الفعالية النفسية كما تجري قوة طبيعية لا ضابط لها . بذلك تكر سلسلة من الرجوعات لا يوقفها

شيء غير الكارثة . يتطلع الناس دوماً إلى بطل، قاتل تنانين، عندما يشعرون أنهم في خطر آتٍ إليهم من قوى نفسية، ومن هنا الصيحة من أجل شخصية .

لا حاجة إلى إرهاق القارئ بالمزيد من الشواهد . طبعاً أنا لم أتصور قط أن مثل هذه الملاحظات قد كانت خليقة بأن تحدث أثراً على أي نطاق واسع . والحق أنني لم يخطر لي ببال قط أن وقتاً سوف يأتي أُلام فيه على عدم قولي شيئاً على الإطلاق عن هذه الأشياء قبل عام ١٩٤٥ أي قبل مقالي « بعد الكارثة » . عندما تسلم هتلر زمام الأمور في ألمانيا بدا لي واضحاً أن اختلالاً عقليّاً قبلياً كان يجيش غلياناً في هذه البلاد . لكنني لم أتمالك إلا أن أقول لنفسي أن هذه هي ألمانيا على الرغم من كل شيء، أمة أوروبية متحضرة ذات حس بالأخلاقية والنظام . من هنا كانت النتيجة النهائية لهذه الحركة القَبَلية التي لا يمكن أن نخطئها أنها كذلك، كانت ماتزال تبدو لي غير واضحة، تماماً كما لو أن شخص « الفوهرر » قد بدا لي حاملاً لقيمتين متناقضتين . صحيح أنني عندما ألقيت في تموز (يوليو) من عام ١٩٣٣ سلسلة محاضرات في برلين، تلقيت انطباعاً عن مسلك الحزب وعن شخص غوبلز غير ملائم أبداً، لكنني لم أكن راغباً في الذهاب منذ البداية إلى اعتبار هذه الأعراض شيئاً حاسماً، لأنني كنت أعرف أناساً آخرين ذوي مثالية لا يرقى إليها شك كانوا يعملون على أن يُثبتوا لي أن هذه الأشياء إن هي إلا أعمال عَسْفٍ لا يمكن تجنبها في كل ثورة عظيمة . والحق أنه لم يكن من السهل أبداً على أجنبي أن يكوّن رأياً

واضحـاً في ذلك الوقت . مثـل كثـير من معـاصريّ، كان لي أيضـاً شكوكي .

لقد تعلمت، وأنا طبيب نفسي اعتاد معالجة مَرْضى هم في خطر من طغيان محتويات الخافية عليهم، أنه من الأهمية القصوى، من وجهة النظر الشفائية، أن أشد أَزْر موقفهم الواعي ومقدرتهم على الفهم إلى أقصى حد ممكن، إلى أن ينهض شيء يمكنه أن يقف في طريق المحتويات التي تقتحم الواعية ويضمّها إلى هذه الأخيرة . ليست محتويات الخافية بالضرورة ذات صفـة تدميرية بحد ذاتها، فهي تحوي قيمتـين متنـاقضتـين . وإن الأمر ليتوقف كلياً على تكوين الواعية التي تعترض سبيل محتويات الخافية إن كانت هذه المحتويات سوف تنقلب لعنة أو بركة .

كانت الاشـتراكيـة القوميـة إحدى ظاهرات سيكولوجيـة القبيـلة، انفجاراً في الخافية الجماعية، التي ظللت عشرين عاماً تقريباً وأنا أتكلم عنها . القوى الدافعة في حركة القبيلة النفسية هي قوى النماذج البدئية في الأسـاس . كل نموذج بدئي يحتوي على أسفـل وأعلى، على خير وشر؛ ولذلك ينتج آثاراً متضادّة تماماً . ولذلك يستحيل أن نتبيّن منذ البدء إن كانت هذه الحركة إيجابية أم سلبية . ولقد كان موقفي الطبي تجاه مثل هذه الأمور يحتّم عليّ الانتظار، لأنه موقف لا يسمح بأحكام متسرّعة؛ لا يعلم ما هو الأفضل منذ البدء، ويريد أن يتيح « محاكمة عادلة » . على طبيب النفس أن ينأى عن الرغبة في تسديد الضربة القاضية إلى الواعية المحاصَـرة، وأن يحاول شـدّ أزر الواعية لكي تستطيع المقاومة من خلال التبصرة، لكيلا يستولي الشر الخبيء في كل نموذج بدْئي على الفرد ويورثه

الدمار . إن هدف الطبيب أن يأتي بالصفة الإيجابية القيّمة الحيّة التي يتصف بها النموذج البدئي ـــ التي سوف تنضم إلى الواعية عاجلاً أم آجلاً ـــ إلى الواقع، وفي نفس الوقت استبعاد ميوله الضارة والمؤذية إلى أبعد ما يمكن . إنه لجزء من الإعداد المهني أن يكون الطبيب قادراً على استجلاب قدر معين من التفاؤل حتى في أحلك الظروف بهدف إنقاذ كل شيء مازال ممكناً إنقاذه؛ لا يستطيع أن يدع نفسه تقع كثيراً تحت تأثير اليأس الحقيقي أو الظاهري الذي قد يوحي به الموقف، حتى ولو كان هذا يعني تعريض نفسه للخطر . زد على ذلك أننا يجب ألاّ ننسى أن ألمانيا، حتى عهد الاشتراكية القومية، كانت أكثر البلدان تميّزاً وتحضّراً في العالم، بالإضافة إلى أنها تمثل لنا، نحن السويسريين، قاعاً روحية تشدنا إليها بروابط الدم واللغة والصداقة . لقد أردت أن أفعل كل شيء كان بمقدوري الضعيف للحيلولة دون انفصام هذه العروة الثقافية، لأن الثقافة هي سلاحنا الوحيد في وجه العقلية القَبَلية المخيفة .

فإذا لم نستطع الإتيان بنموذج بدئي إلى الواقع بصورة واعية، فلا يوجد ضمان من أي نوع لأن يتحقق في شكل دائم؛ على العكس، يشتد خطر الارتداد التخريبي . يبدو أن النفس (سايكي) مجهزة بواعية تهدف إلى الحيلولة دون وقوع الإمكانيات التخريبية .

عوداً إلى مسألة « المرض النفسي الألماني » . أنا مقتنع، كما لم أكن مقتنعاً من قبل، بأن « الاشتراكية القومية » كانت هي الاختلال النفسي القبلي الذي ظللت أتكلم عنه مدة طويلة . في رأيي، إن ما حدث في ألمانيا لا يمكن تفسيره إلا بوجود حالة غير سوية في العقل . لكنني مستعد

للاقتناع إذا استطاع أحد أن يقنعني بأن ظاهرياته الاشتراكية القومية ترجع إلى موجودات نفس سوية . في إيطاليا، اتخذ الخلل القَبَلي شكلاً ألطف قليلاً، وروسيا تستطيع أن تتذرع، عن طريق التماس العذر، بالمستوى المتدني للتعليم الشعبي الذي كان سائداً قبل الثورة . لكن ألمانيا كان مفروضاً فيها أنها بلغت مرحلة عالية من الحضارة، ومع ذلك فإن ما حدث فيها من أهوال قد تجاوز كل شيء عرفه العالم . لذلك أتمسك بأن هناك أعماقاً خاصة عند الألمان تُبدي عن أعنف نقيض لإنجازاتهم العالية السابقة . مثل هذه الحال معروفة في علم الأمراض النفسية بالفصام أو الانفصال، وإن الفصام الاعتيادي علامة على استعداد للمرض العقلي والنفسي .

أنا أعلم أن لكلمة « سيكوباثيك » (= المريض النفسي) وقعاً غير مريح على أذن غير المختص، وتذكر بجميع أنواع المخاوف، كمجانين المصحات العقلية وما أشبه . على سبيل التوضيح، أحب أن أبيّن أن نسبة ضئيلة جداً فقط ممّن يُسَمَّوْن « سيكوباث » هم من نزلاء المصح . الغالبية العظمى منهم يشكلون ذلك الجزء من الناس الذين نزعم أنهم « أسوياء » . إن مفهوم « الحالة السوية » تركيب مثالي . في علم النفس نتكلم عن « نطاق السويّ »، مسلّمين ضمناً بأن مفهوم السويّة يتأرجح بين حدود معينة، وتبعاً لذلك لا يمكن تعريفه بصورة حادّة . ولا نكاد نوسّع من هذا النطاق حتى يكون السياق النفسي قد دخل دائرة « غير السّوي » أو « الشاذ » . ولكننا لا نلاحظ هذه الانحرافات عن « السواء » ــ وهي شائعة جداً ــ مادامت لا تؤدي إلى علامات ظاهرة

على مرض . لكن حين تطرأ أعراض محددة لا شك فيها، وتكون واضحة حتى لغير المختصّ، عندئذٍ نكون أمام حالة « سيكوباثية » (أي، « ألم » في النفس) . أخف الأشكال السيكوباثية أعمّها، وأثقلُها أندرُها . فهناك عدد لا حصر له من الناس الذين يتجاوزون قليلاً نطاق « السويّ » على هذا النحو أو ذاك، موقتاً أو دائماً . فإذا تجمعوا بعضهم إلى بعض في أعداد كبيرة — وهذا ما يحدث في كل تجمّع — تتبدّى ظاهراتٌ غير سويّة . وما على المرء إلا أن يقرأ ما كتبه « لوبون » عن « سيكولوجيا الجموع »* لكي يفهم ما أعني : الإنسان كجزء من الجموع غير سوي نفسياً . ولا يحمينا من هذه الحقيقة جهلُنا بها .

لذلك ليس على من يتأذّى من سماع كلمة « سيكوباثي » إلا أن يقترح كلمة أنعم وألطف شريطة أن تعبر عن الحالة العقلية التي تمخضت عنها الاشتراكية القومية تعبيراً تماماً . من دون قصد الإساءة إلى الشعب الألماني، فإن غرضي — كما قلت — أن أشخّص المرض الذي يضرب جذوره في نفوسهم وكان السبب في سقوطهم . لا شيء يقنعني بأن النازية قد فرضها على الألمان الماسون أو اليهود أو الإنكليز الأشرار — مثل هذا القول مفرط في صبيانيّته . لقد سمعت مثل هذه الأشياء في المصحات العقلية أكثر مما يجب .

كل من يريد أن يكوّن صورة واضحة عن آثار النُّقاص السيكوباثي ما عليه إلا أن يدرس الطريقة التي يردّ بها الألمان المسؤولون — أعني الفئات المثقفة — على الأفعل والتصرفات الشائنة . لاشك أن عدداً كبيراً جدًّ من الألمان قد انزعج بصفة رئيسية من خسارة الحرب . لقد أصيبت نسبة

كبيرة منهم بالصدمة عندما علموا ن قوات الاحتلال قد ارتكبت أعمالاً تتّسم بالقسوة والظلم والوحشية ـ « لا ننسَ أن الحرب قد انتهت الآن » . يرفضون الاستماع إلى الحكايات التي تُرْوى عن سلوك ألمانيا الذي لا يوصف في بوهيميا وبولونيا وروسيا واليونان وهولندا وبلجيكا والنروج وفرنسا . « صحيح، حدثت جميع أنواع الأشياء المؤسفة، لكن هذا كان في أثناء الحرب » . وعدد أكبر قليلاً يسلّم بأن قوات الاحتلال الألمانية قد أقامت معسكرات اعتقال و« المسلك الرديء » الذي ارتكبه الألمان في بولونيا وغيرها، لكنهم بذات النَّفَس يروحون يعدّون الاعتداءات التي ارتكبها الانكليز، ابتداء من حرب البوير، بدون أن يذكروا طبعاً الحرب التي شنّها مريض نفسي آخر (سيكوباث) آخر، هو ويلهلم الثاني . يبدوا أنهم يغيب عن بالهم أن خطيئة شخص آخر لا تغفر لهم خطيئتهم، وأن عادتهم في اتهام الآخرين لهي دليل على افتقارهم إلى التبصرة .

أخيراً نأتي إلى عدد أصغر ـ وهو خير ما في الأمة ـ يعترف : « إن لنا نصيباً في الخراب الذي حلّ بالعالم . يجب أن نتحمّل نتائج حرب شُنّت بروح الوحشية والإجرام، ولا نفكر في محاولة الهرب من المصير الأليم، ولا بالشكوى ولا بالاعتذار* » . مثل هذا الاعتراف لا يجاب عنه إلا بكلمات لوقا : « أخرجوا الحلّة الأولى وألْبسوه واجعلوا خاتماً في يده وحذاء في رجليه وقدّموا العجل المسمّن واذبحوه فنأكل ونفرح لأن ابني هذا

* من تدخل المؤلف .

كان ميْتاً فعاش وكان ضالاً فَوُجد » (لوقا ٢٢ - ٢١ : ١٥) . وجعلنا نشعر بشيء من الفرح الذي ساد في السماء على المذنب التائب، وخيبة الأبرار التسعة والتسعين . ومع ذلك، ماذا نجد في الجملة التالية مباشرة ؟ « ومع ذلك، في الوقت الذي أعلن فيه الناس بصراحة وقناعة أنهم مسيحيون انجيليون، اقتضى منّا ووجب علينا أن ..... نبيّن جازمين أن ما من أحد يتعرض لخطر أكبر، على حد قول الإنجيل، **من الذي يحكم على الآخرين ويدينهم مطمئناً إلى شعوره بالبراءة** ..... لا نستطيع أن نتغاضى، بل يجب ألا نتغاضى عن رجال السياسة الأجانب وحكوماتهم قد لعبوا هم أيضاً دوراً حاسماً في الكارثة الأوربية الأولى، بسبب سياستهم التي اتبعوها قبل وبعد ١٩١٨ التي كانت أيضاً سياسة تعتمد مبدأ القوة القائمة على الظلم، وأنهم ساهموا بنصيبهم في التضخم والأزمة الاقتصادية التي انبثقت الاشتراكية القومية منها » .

في المقطع الأول نقرأ أنه ما من أحد ينوي أن يتهم أحداً، وفي الثاني يأتي الاتهام . ويمرّ التناقض بدون أن يلاحظ أحد . عندما يعقب الاعترافَ والتوبةَ دفاعٌ عدواني تصبح صحة التوبة معه أمراً مشكوكاً فيه . ولما كان من الصعب أن نصدق أن مؤلفي هذه الوثيقة قد تعمدوا تقويض آثار اعترافهم، لايسعنا إلا أن نستنتج ــ كما ينطبق هذا بكل أسف على مالا حصر له من الحالات التي تُطرح فيها حجج مماثلة ــ بأن هناك غيبوبة وعي مذهلة عن الأثر القاتل الذي يخلقه مثل هذا الموقف .

ثم يجب علينا أن نتساءل أيضاً : هل سلّمت ألمانيا علناً بأنها تشعر بالذنب إذا كانت الآن « تحكم على الآخرين وتدينهم ؟ » . يبدو أن

واضعي الوثيقة فاتهم أن يلاحظوا أن في أوربا كثيراً من الناس قادرين على تكوين حكم بنفسهم، ولا يُخدَعون عن الحقيقة بمثل هذه السذاجات غير الشعورية . وهكذا تنقلب الوثيقة إلى نجوى (مونولوغ) حمقاء بما يتفق مع الصورة السريرية . فالآباء والمعلّمون، والقضاة وأطباء النفس، كلهم يعرفون جيداً هذا المزيج من التوبة والشهوة إلى الانتقام، هذه الغيبوبة نفسها وهذه الزراية نفسها بالأثر المفجع، هذا التمركز على الذات الذي لا يكترث بغيره من الناس . مثل هذا الموقف يحبط غايته : يبدأ بالإيحاء بالتوبة، وفي الدقيقة التالية يدافع عن نفسه باعتماده الهجوم . هذه المناورة سرعان ما تجعل التوبة غير صحيحة والدفاع غيرَ مُجْدٍ؛ فقد بلغت من غيبوبيّتها مبلغاً لا تستطيع معه أن تحقق غرضاً، وهي غير متكيفة مع الواقع وغير مكافئة لمتطلباته . يقول مثل قديم : « المرض نقص تكيّف » . ونوع التكيف المبيّن في الوثيقة لا قيمة له أخلاقياً ولا عقلياً؛ إنه تكيف ناقص، وناقص سيكوباثياً تبعاً لذلك .

وإنّي إذ أقول هذا ليس في نيّتي أن أتّهم أو أدين . وأنا مضطر إلى قول ما قلت لأن تشخيصي كان موضع لشك . والتشخيص الطبي ليس اتّهاماً، والمرض ليس لعنة بل شقاء . منذ عام ١٩٣٦ دَعَوْتُ إلى درس العقلية الألمانية . حتى الآن، أنا أتبنّى موقف طبيب النفس، ولذلك يجب أن أشدد على ضرورة التعمق في الفحص بدون اعتماد أحكام مرتجلة تخفيفية . لا يفيد المريض في شيء أن يخرج بنصف وعي لحالته، وأن يغطّي نصفه الآخر بأوهام اختبرها لتوّه في أفظع صورة . إن عطفي على مصير الألمان لعظيم، وأنا أعلم ـــ والألم يحزّ في نفسي ـــ أن مقدرتي على

العْون ضئيلة إلى أبعد الحدود .. لذلك آمل وأرجو أن ينتهي سريعاً أحد أشد الأخطار التي تتهدد ألمانيا، إلى جانب البؤس الاقتصادي، ألا وهو العزلة الروحيـة . العزلة القوميـة، تصحبها سيكولوجية القبيلة والمركزية، هلاك ألمانيا . المهمة التي يتعيّن عليها القيام بها ليست سياسية بل روحية، والمـواهب التي تتمتع بها من أجل ذلك فريدة . لذلك يتعـين علينـا في المقـابل أن نعـين ونؤيد هذا الجانب من طبيعتها بكل الوسـائل التي في حَوْزتنا .

لا يسعني إنهاء هذه الخاتمة دون أن أقول بضع كلمات عن إطلالة على المستقبل . ما من أمة سقطت إلى الحضيض كما سقط الألمان، وما وَسَم أحد نفسه بمثل هذا الميسم، الذي سوف تعجز الأجيال عن محْوه . لكن عندما ينوس شاقول في إحدى وجهتيْن نوساناً شديداً، يكون مؤهّلاً لأن ينوس في الوجهـة الأخرى بنفس الشدة ــ إن صح لنا استخدام هذا التشبيه على الحركة النفسية في أمة . لا أدري إن كان لهذا ما يسوّغه من وجهة النظر الإتنوسيكولوجية . الشيء الوحيد الذي أعلمه أن الفرد الذي عنده ميل إلى الفصام قد يوجد في نفسه نوسانات عنيفة، مما ينجم عنه أن يؤدي أحد الطرفين إلى نقيضه بالضرورة . غير أنه إذا ظل يحتفظ بصفاته الإنسانية، وكان لديه بالتالي قيمة متوسطة، فأنا أميل إلى أن الناقص يوازنه الزائد . بعبارة أخرى، إني أؤمن أن في الألمان قدرة على التجدد وإيجاد الجواب الصحيح عن التوتر الرهيب بين الأضداد التي كانت واضحة جداً في السنوات الإثنتي عشرة المـاضيات . في هذه الحالة، لن تكون ألمانيا منعزلة، لأن جميع القوى الروحية الإيجابية العاملة في أنحاء العالم المتحضر

سوف تقف بجانبها وتؤيد مسعاها . فالصراع بين النور والظلام متفجر في كل مكان، والتصدع يصل إلى جميع أنحاء الكرة، والنار التي أحرقت ألمانيا تومض تحت الرماد، والحريق الذي شبّ في ألمانيا قد جاء نتيجة لشروط نفسية عالمية . وعلامة الخطر الحقيقي ليست هي العلامة الناريّة المعلقة فوق ألمانيا، بل تحرير الطاقة الذريّة، التي أعطت النوع البشري القدرة على القضاء على نفسه قضاءً مبرماً . والوضع أشبه ما يكون بوضع طفل صغير في السادسة أعطيناه كيساً من الديناميت هديةً لعيد ميلاده؛ لا نقتنع بتوكيداته بأن مصيبة لن تحدث . هل في وسع الإنسان أن يتخلى عن اللعب بفكرة حرب أخرى ؟ هل نستطيع أخيراً أن نضع في أذهاننا أن كل حكومة تحكم وطنيين متّقدي العاطفة تُبدي عن استعداد للأمر بتعبئة عامة يجب تنفيذ حكم الإعدام في جميع أعضائها ؟

كيف يمكننا أن ننقذ الطفل من الديناميت الذي لا يستطيع أن ينتزعه منه أحد ؟ إنِ الروح الخيّرة في الإنسان تواجه تحدّياً كما لم تواجه من قبل . لم يعد ممكناً أن نتكلم عن الحقائق همساً أو أن نطليها بالألوان الورديّة . هل تُلهمنا هذه المعرفة تحولاً داخلياً كبيراً في عقولنا يَهَبُنا واعية أعلى وأنضج وحسّاً بالمسؤلية .

لقدِ حان الوقت لكي يلتفت الإنسان إلى الأشياء الأساسية . فالمسألة قد اصبحت الآن مسألة وجود أو عدم، ولا بد لنا أن نوليها من البحث أَعْمَقهُ ومن الدرس أوْسَعهُ . ذلك أن الخطر الذي يتهددنا الآن ذو أبعاد تجعل هذه الكارثة الأوروبية الأخيرة تبدو وكأنها افتتاحية تمثيلية .

محتويات الكتاب

هذا الكتاب

« . . . طرحتْ ألمانيا على العالم مشكلة ضخمة ، وهي مشكلة يجب النظر إليها من زوايا كثيرة ، ليس الجانب السيكولوجي منها إلا واحداً من وجوهها الكثيرة . وأنا ، كعالم نفسي ، أميل طبعاً الى الاعتقاد بأن الجانب النفسي ذو أهمية كبيرة ، لكنني أرى أن أترك للقارىء أن يكوّن رأياً خاصاً به حول هذه النقطة . إن اهتمامي المهني بشؤون سيكولوجية الخافية غالباً ما يُظهر لي أشياء كانت لم تزل بَعْدُ خبيئة في الخافية لكنها موجودة في حالة جنينيّة ، وهذه المحتويات على أهبة الاستعداد لاقتحام الواعية قبل أن يكون لدى الفرد فكرة عما تدّخره له نفسه بزمن طويل » .

يونغ

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع